تصحيح المفاهيم

في جوانب من العقيدة

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

محمد أمان بن علي الجامي

عميد كلية الحديث الشريف ورئيس شعبة العقيدة بالدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية "سابقاً"

دار المنهاج

تنبيه هام

نعلـــن نحن ورثة **الشيخ / محمد أمان بن على الجامى** ، لجميع الأوساط العلمية ومؤسســـات ودور النشر والمطابع بأننا قد أعطينا حقوق الطبع لكتب والدنا الشـــيخ / محمد أمان بن على الجامى – رحمه الله – إلى مكتبة "**دار المنهاج**" للنشر والتوزيع بجمهورية مصر العربية لصاحبها الأخ / مصطفى محمد المرشدى وهذا بموجب عقد مبرم بيننا – أى ورثة الشيخ – وبين "دار المنهاج" للنشر والتوزيع.

ولـــم يتم من طرفنا عمل عقد آخر مع أى مكتبة أو دار نشر أو مطبعة داخل جمهورية مصر العربية (إلا "دار المنهاج").

كما ينبه ورثة الشيخ بأن أى مكتبة أو دار نشر داخل جمهورية مصر العربية قد تقوم بطباعة مؤلفات والدنا الشيخ هى **طبعات غير شرعية ويعرض صاحبها للمساءلة القانونية.**

ولذا جرى التنبيه حتى لا يغتر أحد بشراء أو بيع أو توزيع هذه المطبوعات.

،،، والله الموفق ،،،

الوكيل الشرعى لورثة

الشيخ محمد أمان بن على الجامى

على بن محمد أمان على الجامى

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع حقوق الطبع محفوظة
لـ " دار المنهاج "

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٩٥٥٤م

صف وإعداد	مكتب أضواء السلف
جرافيك	أحمد دبوس
خطوط	مصطفى عمري
طباعة	المركز الدولي للطباعة

دار المنهاج

٨١ شارع الهدي المحمدي - متفرع من أحمد عرابي - مساكن عين شمس - القاهرة
جمهورية مصر العربية محمول: ٠١٢٣٩٥٢٣١٧
E-Mail:DarAlmenhag@HotMail.Com

بسم الله الرحمن الرحيم

تصحيح المفاهيم

في جوانب من العقيدة

القسم الأول

دار المنهاج

القسم الأول

أحمد الله رب العالمين، وأصلي وأسلم على سيد الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته أجمعين.

تصحيح المفاهيم في جوانب من العبادة والصفات

إن كل دارس لأحوال المسلمين يرى العجب إذ يرى فيهم اختلافًا كثيرًا... يختلفون فيما يعتقدون نحو ربِّهم وخالقهم .. يختلفون في عبادته، في أسمائه وصفاته، يختلفون في سلوكهم وسيرهم إلى الله، يختلفون في القرآن الذي نزل لهدايتهم ورحمة لهم ونورًا... بل إنَّهم يختلفون في تصور دينهم وإسلامهم أحيانًا.

وسوف أختار لحديثي هذه المرة النقاط الآتية، وأختصر في البحث رجاء أن تقدر لي كرة أخرى إليَّ هذا الموضوع ذاته لأتحدث عن بقية النقاط، وأما النقاط الَّتي اخترتُها هذه المرة فهي:

١ – **العبادة.**

٢ – **التوسل.**

٣ – **مبحث الصفات.**

٤ – **القرآن الكريم.**

وقع اختياري على هذه النقاط لكثرة اختلاف الناس فيها، ولأن تصحيح الأخطاء فيها، وتخفيف حدة الاختلاف حولها، ممَّا يقرب تلك القلوب المتنافرة

بعضها من بعض، حتَّى يتم للجماعة الإسلامية التفاهم فيما بينها، وتصحيح أخطائها فيما عدا ذلك، وكأنِّي على يقين من أن المسلمين لا تتقارب وجهات نظرهم الدينية، طالَمَا هم على هذه المفاهيم الخاطئة فِي هذه النقاط الَّتِي سوف أتناولها بالبحث.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

العبـادة

عبادة الله تعالى هي أول نداء نادى به كل رسول في قومه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [البقرة:١٢٢]. وهي أول موضوع وأهم موضوع لكل كتاب أنزل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]. وهي مهمة الفرد والجماعة في هذه الحياة، ومن أجلها خلقوا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. العبادة الّتي هذه مكانتها، يخطئ في مفهومها كثير من المسلمين، وقد تستغرب هذا القول أيها المستمع الكريم، ولك أن تستغرب، ولكن سرعان ما يتبين لك صحة ما قلت بعد شيء من الإيضاح، إن حالفك التوفيق والإنصاف، والإنصاف من الإيمان.

❊ **تعريف العبادة:**

العبادة في اللغة: هي الخضوع والتذلل، يقال: طريق معبد إذا كان مذللاً مسلوكًا.

وأما في الشرع: فقد عرفها بعض أهل العلم بقوله: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وعرفها الإمام ابن تيمية بتعريف موجز وجامع ومانع إذ يقول: "العبادة غاية الذل مع غاية الحب".

وبعد هذا التعريف يتضح أن للعبادة أفقًا رحبًا، ودائرة واسعة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والإنابة، والخشية، وحفظ الأمانة، وصدق الحديث، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين

وعامتهم، وحب الله ورسوله، والتقرب إلى الله بأنواع القربات كالذبح والنذر، والتوكل عليه، والاكتفاء به وكيلاً ووليًّا، والتحاكم إليه، والرجوع والرد إليه عند التنازع، كل أولئك عبادة، وقصد غير الله بهذه الأنواع وأمثالها، وتوجيهها إلى غير الله وعدم الاكتفاء به وبشرعه، يعني عبادة غير الله، وتسميتها بعد ذلك بأسماء غير العبادة كمحبة الصالحين مثلاً بالنسبة لبعض الخصال لا يغير من جوهر الحقيقة شيئًا.

ومن الأخطاء الشائعة في صفوف المسلمين اليوم: أن كل جماعة من المسلمين بل كل فرد منهم أحيانًا يحاول أن يأخذ من الإسلام الجانب الذي يستحسنه ويستسيغه، تاركًا الجوانب الأخرى من الإسلام، ويرى أن هذا الجانب الذي اختاره يكفيه ليكون مسلمًا، ويغنيه عن الجوانب الأخرى من الإسلام والعبادة، فمثلاً لو أن إنسانًا ما، أو جماعة ما تمسكت بالإسلام في الجانب السلوكي والخلقي، أو في إخلاص العبادة لله وحده بحيث لا تدعو غير الله، ولا تتقرب بالذبح والنذر مثلاً لغير الله، ولكنها لا تكتفي بالأحكام الإسلامية في الجانب الاقتصادي والسياسي، بل ترى لابد من تطبيق القوانين الأجنبية في هذا الجانب شرقية كانت القوانين أو غربية، أو وضعية محلية، فهل يقبل الإسلام مثل هذا التصرف وهذه الحرية في الاختيار؟ والجواب: لا.

بل قد استنكر القرآن هذا الموقف استنكارًا، واعتبره كفرًا... **﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾** [البقرة:٨٥]. لأن ذلك يعني عدم الاكتفاء بالله ربًّا ومعبودًا وحاكمًا وحده، وبالإسلام دينًا ومنهاجًا وحده، وبمحمد رسولاً وإمامًا وقدوة وحده -عليه الصلاة والسلام-،

ولا يصح إسلام المرء حَتَّى يكون عبدًا مستسلمًا لمولاه فِي كل أمر، راضيًا لحكمه وقضائه فِي جميع جوانب حياته: فِي عقيدته، فِي معاملته مع الناس، فِي أخلاقه، فِي اقتصاده، فِي سياسته، فِي حياته ومماته: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام:١٦٢]. ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

وهذه المعاني كلها هي مضمون قول المسلم: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله .. وهي معنى قوله أيضًا: «**رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا ورسولاً**»[١].

ومن التناقض الغريب أن يقول المسلم كلمة الإسلام بلسانه ثُمَّ ينقضها، إما بفعله، أو بقوله، أو ببعض تصرفاته، وذلك راجع فِي الغالب إِلَى أنه يقول الكلمة تقليدًا وعادة، لا عن فهم لمعناها فيقع فِي خطأ فِي معنى العبادة، وخطأ فِي مفهوم الشرك وعبادة غير الله، وهو حال أغلب المسلمين فِي العصر الحديث -وللأسف- فجمهور المسلمين بحاجة ماسة إِلَى أن يفهموا معنى كلمة التوحيد من جديد؛ لئلا تلتفت قلوبُهم إِلَى غير خالقها وبارئها فِي كل شيء، لأن الكلمة تعني: أن تكون العبودية لله وحده، لا إله إلا الله، ولا رب سواه، ولا حاكم غيره، وقد فهم المشركون من أهل مكة ما تعني هذه الكلمة، وأدركوا خطورتَها على آلهتهم، فرفضوا التلفظ بهَا، بل قاوموها وعادوا لأجلها رسول الهدى محمدًا -عليه الصلاة والسلام- بعد أن كانوا يقدرونه جيدًا، ويصفونه بالأمانة وصدق اللهجة والعقل والنبل والعبقرية، وكان كل ذلك قبل أن يدعوهم إِلَى دعوته الجديدة الَّتِي حجر زاويتها كلمة التوحيد، وقف القوم هذا الموقف لأنَّهم تأكدوا أن الكلمة تعني

(١) أخرجه مسلم (٣٨٦) من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ.

ثورة ضد كل من يعبد، وما يعبد من دون الله ويفزع إليه عند الحاجة، ويتقرب إليه، ويتحاكم إليه، وذلك دينهم الذي ورثوه من الآباء والأجداد.

إنَّهم أدركوا أن الكلمة تعني: ألا تخضع القلوب ولا تعنو الوجوه إلا للحي القيوم، أما آلهتهم فالكلمة حرب عليها، وتحاول أن تصرف الناس عنها لتوجههم وجهة أخرى جديدة وسليمة ومأمونة العاقبة، هذا ما أدركته الجاهلية الأولى من الكلمة، وقد وقع ما كانوا يتوقعونه، ففوجئوا بانقلاب تاريخي فِي صفوفهم، وبهزة غريبة وعنيفة فِي نفوسهم، وبهزيْمة منكرة فِي داخلهم، -وإن كانوا يضمرونَها ويحاولون إخفاءها- وتحقق ذلك يوم أن أكرم الله من شاء من عباده، واقتنعوا بكلمة التوحيد، وقالوها عن فهم واقتناع، قالوها وهم صادقون وجادون حَتَّى أصبح الذين كانوا أشد عداوة لدعوة التوحيد أصبحوا أشد تحمسًا لَها، وأنشط فِي الدعوة إليها، والمحبة من أجلها، والعداوة فِي سبيلها.

فالكلمة لَها سر عجيب إذا فهمت حقًّا، وهي السلاح الماضي، بل هي أخطر على الجاهلية والوثنية ورواسبها من كل سلاح، وهي السلاح الذي يفقده اليوم الجندي المسلم فِي الغالب بعد أن سلح بأحدث الأسلحة، ولكن هذه الأسلحة الحديثة سوف لا يكون لَها مفعول يذكر قبل أن يسلح الجندي المسلم بهذا السلاح الروحي: سلاح الإيمان، سلاح العقيدة، ويفهم الإسلام الذي يجاهد لأجله، ولا سبيل إلَى ذلك الفهم إلا بفهم معنى كلمة الإسلام على ضوء ما شرحنا.

وقد سجل التاريخ ما فعلته هذه الكلمة فِي قلوب المشركين فِي صدر الإسلام فِي مكة بعد الاقتناع بِهَا طبعًا، فهذا عمر بن الخطاب بينما هو فِي ثورة ضد الإسلام، ودعوة التوحيد، إذا به تتمكن منه الكلمة فتصيبه فِي سويداء قلبه،

وتقضي على تلك الثورة الجاهلية وتخرج أثرها من قلبه، فينقلب عمر مجاهدًا إسلاميًّا، ويحل محل الجاهلية نور لا إله إلا الله، ويفعل فِي نفس الرجل فعله العجيب، فيخرج عمر على الناس بوجه آخر وبلهجة أخرى وبثورة أخرى لا تقف عند حد.

تحول سريع وخطير ومفاجئ حزنت عليه الجاهلية وخافت من أمره، بل بقيت مكة ذاتُها حزينة وقلقة منذ تحول عمر وانتقاله من صف الجاهلية إِلَى صف الإسلام، ومنذ أن قلب عمر للجاهلية ظهر الْمجن بقيت مكة حزينة إِلَى أن شرح الله صدرها للإسلام، فأصبحت دار إسلام.

أيها الإخوة: هذه كلمة التوحيد، وتلكم آثارها إذا هي فهمت، وقد فهمها قوم فسعدوا بِهَا وسادوا بِهَا العالم، ودانت لَهم الدنيا، ولَهم أجرهم عند ربِّهم فِي الآخرة لأنه: "لا يضيع أجر من أحسن عملاً".

وبعد: فما أحوجنا اليوم إِلَى عمر!! نعم إِلَى عمر لمقاومة جاهلية القرن العشرين ووثنيته، ما أحوج المسلمين إِلَى الصديق للقضاء على ردة هذا القرن وهي "ردة ولا أبا بكر لَها .. وقضية ولا أبا حسن لَها". ردة الإلحاد والمادية، ردة الميوعة والشيوعية ومشتقاتها.

حقًّا نحن بحاجة إِلَى صراحة عمر وشجاعة عمر وقوته، وإِلَى لين أبِي بكر وحزمه وثباته وشجاعته وعزيمته الماضية الَّتِي سجلها التاريخ فِي حروب الردة ويوم تنفيذ جيش أسامة، نحن بحاجة إِلَى هذه الخصال لنحمل الناس من جديد على دراسة الإسلام وفهمه حق الفهم، حَتَّى تثمر تلك الدراسة: الإيْمان، واليقين، والثقة بالله، والاكتفاء به ربًّا معبودًا وحاكمًا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

وبذلك نستطيع أن نصحح للناس هذا الخطأ الخطير فِي مفهوم كلمة التوحيد، ليرجع المسلمون إِلَى دينهم من جديد، وليقيموا حياة إسلامية كأطهر حياة وأنظفها على وجه الأرض، حياة التوحيد الخالص والعبادة لله وحده، حياة العدالة والحق، حياة الإخاء فِي الله والمحبة فيه، حياة علم ومعرفة، حياة تسودها المحبة والتعاون والتآزر بين الجماعة الإسلامية، حياة ينعم فيها الإنسان بالأنس بربه ومولاه وولي نعمه، ومثل هذه الحياة الَّتِي ننشدها يستحيل أن تتحقق وتقوم قبل تحقيق التوحيد بأوسع معناه وأصدقه، وقبل تعميق العقيدة والإيْمان فِي النفوس، بل كل من يحاول إقامة حياة إسلامية كاملة دون القيود الَّتِي ذكرناها، فإنَّما يضرب الحديد البارد، وينفخ فِي الرماد، ويستمطر سحابة الصيف، وأنَّى لَها الماء ويحسب السراب ماء!!.

وصدق الإمام مالك -رحمه الله- إذ يقول: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها". ومعلوم أن الذي أصلح أول هذه الأمة، وسعدوا به فِي الدنيا، وسادوا به العالم هو فهمهم حقيقة هذا الدين فِي تحقيق التوحيد، وتطبيق الشريعة كاملة غير مجزأة، وإشاعة العدل فِي الدنيا، وعدم التخبط فِي عبادة الله ودينه وشريعته.

وهذا البحث يجرنا إِلَى الخوض فِي الحديث عن الخطأ الشائع فِي صفوف جُمهور المسلمين فِي باب التوسل، وهي النقطة الثانية فِي حديثنا، إذ نلاحظ أن كثيرًا من المسلمين يخطئون فِي مفهوم التوسل، ويخرجون بالكلمة عن معناها -الذي هو: التقرب إِلَى الله- من حيث لا يشعرون، ويطلقونَها على العبادة الْمَحضة.

التوســـل

ولعل سبب الخطأ في هذه النقطة بالذات راجع إلى جهل كثير من الناس لغة الصحابة، وعرفهم، واستعمالهم.

ولنستوضح الأمر، فلنسمع ما قاله عمر بن الخطاب ﷺ في عام الرمادة، وهو العام الذي أصيب فيه المسلمون بالقحط والجفاف في عهد عمر، فجمع عمر الناس للاستسقاء، ثُمَّ قال: "اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، فالآن نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا. ثُمَّ طلب من العباس أن يدعو الله، فقام العباس فدعا الله تعالى فسقاهم الله"(١).

والشاهد من القصة قول عمر: كنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا. فيا ترى ماذا يعني عمر بقوله: كنا نتوسل إليك.

هذا هو السؤال الذي يقتضيه المقام، وهو السؤال الذي يدور في رأس كل مستمع تقريبًا، ويكاد أنْ ينطق به كل لسان، وينبغي أن يكون نص السؤال هكذا: كيف كانوا يتوسلون به في حياته؟ ولماذا عدلوا عن التوسل به بعد وفاته إلى التوسل بغيره؟.

وبالإجابة على هذين السؤالين يزول كل إشكال، ويتضح وجه الصواب -إن شاء الله- لطلاب الحق.

فنقول -مستعينين بالله-: التوسل الذي عناه عمر ﷺ هو الذي وضحه حديث أنس بن مالك خادم رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، والحديث في

---

(١) أخرجه البخاري (١٠١٠).

الصحيحين ولفظه هكذا: «إن رجلاً دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو دار القضاء، ورسول الله قائم يخطب فاستقبل رسول الله -عليه الصلاة والسلام- قائمًا ثُمَّ قال: يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا، قال: فرفع رسول الله يديه ثُمَّ قال: **اللهم أغثنا، اللهم أغثنا** -ثلاثًا-. قال أنس: والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار. قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثُمَّ أمطرت. قال أنس: والله ما رأينا الشمس سبتًا -أي: أسبوعًا- قال أنس: ثُمَّ دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله قائم فاستقبله قائمًا فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا. قال أنس: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثُمَّ قال: **اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر**. فانقلعت وخرجنا نمشي في الشمس»[(١)].

قال شريك راوي الحديث: "فسألت أنس بن مالك: أهو الرجل الأول؟ قال: لا أدري".

هذا مثال من أمثلة توسلهم برسول الرحمة في حياته -عليه الصلاة والسلام-.

وهناك مثال آخر ما تضمنته قصة الأعمى المشهورة، وملخصها هكذا: «جاء رجل أعمى إلى رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يدعو الله له ليرد الله عليه بصره، فخيره النَّبي بين أن يصبر على عماه، وهو خير له وبين أن يدعو الله له. فقال الأعمى: بل ادع الله. فأمره النَّبي -عليه الصلاة والسلام- أن يتوضأ فيصلي

(١) أخرجه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ.

ركعتين، ثُمَّ يدعو بالألفاظ التالية: «**اللهم إنِّي أسألك، وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا رسول الله، يا محمد، إنِّي أتوجه بك إلَى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم شفعه فيَّ**»[1].

هذه قصة الأعمى: فأجاب الله دعوة نبيه، كما أجاب دعوة الصحابي المسكين، وحقق أمنيته فرد عليه بصره العزيز.

ففي كلتا الواقعتين آية من آيات النبوة لنبينا محمد -عليه الصلاة والسلام- كما لا يخفى، وإلَى هذا النوع من التوسل بالنبي -عليه الصلاة والسلام- في حياته أشار عمر في عام الرمادة بقوله: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك». وقد عرفنا كيف كانوا يتوسلون به ﷺ يطلبون منه الدعاء، يطلبون منه أن يدعو الله لَهم ليغيثهم، يطلبون منه فيدعو الله لَهم ليرد الله بصر من فقد بصره والله على كل شيء قدير وحده، وربَّما أمر النَّبي -عليه الصلاة والسلام- من طلب منه الدعاء أن يتضرع إلَى الله لِيجيب الله دعوة نبيه له -عليه الصلاة والسلام- إذا توجه به إلَى ربه، وطلب منه الشفاعة كما يظهر ذلك جليًّا في قصة الأعمى، وعلى كلٍّ فالمدعو هو الله، والمرجو هو الله، والذي يغيث العباد وينْزل الغيث هو الله، والذي يجيب دعوة المضطر ويرد البصر على من فقد بصره هو الله وحده لا شريك له، ولكن النَّبي يدعو ويشفع، وكذلك ورثته من العلماء والصالحين.

ومن هاتين الواقعتين، ومن هذا السياق نعلم أن جمهور المسلمين جهلوا لغة الصحابة في معنى التوسل واستعمالهم، فغيروا الحقائق، فغلو في الصالحين فدعوهم من دون الله واستغاثوا بهم، ثُمَّ قالوا: إنَّما نتوسل بِهم، بل هذه من محبته

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (١٣٨٥) من حديث عثمان بن حنيف ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢٧٩).

جهلاً منهم أو تجاهلاً، ولعلنا لا نختلف في وجهة خطأ هذا الاتجاه بعد أن عرفنا معنى التوسل في الحديثين السابقين.

ومن المعلوم ضرورة أن الأسماء لا تغير الحقائق؛ فالخمر خمر طالَما تسكر ولو سميت ماء عذبًا أو لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين أو عسلاً مصفى، فالدعاء والاستغاثة والذبيحة والنذر عبادة ولو سماها أهلها توسلاً أو تبركًا أو محبة للصالحين.

وهكذا يتم الجواب على السؤال الأول القائل: كيف كانوا يتوسلون بالنبي -عليه الصلاة والسلام- في حياته؟ لننتقل إلَى الجواب على السؤال الثاني وهو لماذا عدلوا عن التوسل به بعد وفاته، فصاروا يتوسل بعضهم ببعض كما رأينا ذلك في قصة عام الرمادة؟

وملخص الجواب على هذا السؤال كالآتي:

أولاً: ورود السؤال بهذه الكيفية وبهذه الصيغة يدل على تصوره معنى التوسل في لغة الصحابة وعرفهم كما قلنا آنفًا.

ولو كان السائل تصور معنى التوسل بالنبي في قول عمر السابق الذكر لأراح نفسه وأراحنا معه، وهو طلب الدعاء منه -عليه الصلاة والسلام-، وأن ليس في إمكان أي أحد أن يذهب إلَى الرسول بعد وفاته ليشكو إليه حاله من القحط والمرض وذهاب البصر، ليدعو الله كما كان يفعل ذلك في حياته في الدنيا؛ لأن الحياة البرزخية الَّتِي انتقل إليها رسول الله -عليه الصلاة والسلام- لا يعلم حقيقتها إلا الله، ولذا عدلوا عن التوسل به -أي: عن طلب الدعاء منه- إلَى طلب الدعاء بعضهم من بعض كما فعل عمر ﷺ مع عم النَّبِي العباس بن عبد المطلب.

ولأن التوسل لَمْ يكن بجاهه وكرامته ومنْزلته عند الله كما زعم بعض

الناس، ولو كان الصحابة يعلمون أو يعتقدون أن التوسل إنّما هو بجاهه ومنزلته وكرامته على الله لما عدلوا عنه، لأن جاهه ومنزلته وكرامته على الله لَمْ ينقص من ذلك شيء بوفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى. بل هو أعظم جاهًا من كليم الله موسى عليه السلام الذي قال الله في حقه: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب:٦٩]. ومن عيسى روح الله وكلمته المذكور في قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران:٤٥]. وغيرهما من أنبياء الله ورسله، لأنه -عليه الصلاة والسلام- سيدهم وأفضلهم على الإطلاق وإمامهم وقد صح عنه -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة**»[١]. وقال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[٢].

ولكن الله لَمْ يجعل جاه أحد من خلقه سببًا لقضاء الحاجات وكشف الكربات وإجابة الدعاء، ولا يكون سببًا لهذه المعاني وغيرها إلا ما جعله الشارع ودل عليه العباد.

هذا هو السر الذي جهله كثير من الناس، وتجاهله الآخرون تحت تأثير الهوى والتقاليد، حتّى وجهوا صريح العبادة لله لعباده باسم التوسل، وأحيو بذلك حياة الجاهلية في حين لا يعلمون والله المستعان. إذ لا معنى لقول القائل: "اللهم أجب دعوتي، لأن فلانًا رجل ذو جاه عندك وذو منزلة وكرامة".

لأنه لا علاقة بين جاهه وإجابة دعاء هذا القائل لأن جاهه ليس من عمله، وإنّما يتوسل الإنسان بعمل نفسه أو بدعاء غيره، والصواب في هذه النقطة أن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٦٥١)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٨).

يقول المتوسل: اللهم إنّي أدعوك وأتوسل إليك بإيماني بنبيك محمد ومحبتي له واتباعي لسنته -عليه الصلاة والسلام-، لأن الإيمان بالنبي -عليه الصلاة والسلام- ومحبته واتباع سنته من أعظم الأعمال وأحبها وأنفعها عند الله، ومن توسل إلى الله ودعا الله بهذه الأعمال فقد توسل إليه بأحب الأعمال وأعظمها عند الله.

ومن الخطأ -أحسبه متعمدًا- أن يظن بأن منكر التوسل بالجاه هو منكر للجاه نفسه -ما أسوأه من ظن- إذ بين الإنكارين فرق كبير وبون شاسع، فإنكار التوسل بالجاه إنكار للبدعة، وإنكار البدع شعبة من شعب الإيمان؛ لأنه من باب إنكار المنكر، وأما إنكار جاهه -عليه الصلاة والسلام- فشعبة من شعب الكفر؛ لأن إنكار جاهه -عليه الصلاة والسلام- ومنْزلته وكرامته على الله يعني انتقاصه -عليه الصلاة والسلام- وذلك ردة عن الإسلام -عياذًا بالله-.

لأنه يتنافى والإيمان بالنبي -عليه الصلاة والسلام-، ذلك الإيمان الذي يعبر عنه حبه وتوقيره واتباع سنته إذ يقول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «**لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين**»[1].

وقد سلك هذا المسلك كثير من المغرضين، وأعلنوا للعامة الأغمار أن الذين ينكرون التوسل بجاه النّبي إنّما يفعلون ذلك لأنّهم يكرهون النّبي -عليه الصلاة والسلام- ما أعظمها من فرية!! وهي مغالطة ساخرة ورخيصة يترفع عنها كل مسلم منصف يخاف الله ويراقبه ويحسب كلامه وأعماله، وإنّما يتورط في هذه الفرية ويهبط إلى هذا المستوى بعض المغرضين الذين يضحكون على عقول العوام غاشين غير ناصحين، ويفسرون لهم محبة الرسول بالاستغاثة به ودعائه من دون

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس ﷺ.

الله أو مع الله.

والتوسل بجاهه وإقامة المولد له -عليه الصلاة والسلام- تلبيسًا منهم على العوام وكتمانًا للحق وهذا الصنف من الناس هم حجر عثرة في سبيل الدعوة والدعاة -هداهم الله، وألهمهم رشدهم- ومِمَّا يزيد المقام وضوحًا، ويقطع دابر تلك الأوهام الَّتِي لا تزال عالقة بأذهان بعض العوام وأشباه العوام من أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- يدعو للناس بعد موته ويتوسل به بعد انتقاله إِلَى الرفيق الأعلى، مِمَّا يقطع دابر هذه الأوهام حديث رواه البخاري فِي صحيحه فِي كتاب المرضى عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت ذات مرة وهي مريضة: «وارأساه. فقال رسول الله: **ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك**»[1]. أي: إن مت وأنا حي سأستغفر لك. ذلكم هو لفظ الحديث، وهذا معناه واضح جلي وبه فسر الحافظ بن حجر ثُمَّ ساق رواية أخرى توضح معنى هذا الحديث أكثر فأكثر وملخصها هكذا: «**أما يرضيك لو مت قبلي حَتَّى أكفنك وأصلي عليك وأدفنك وأدعو لك**»[2].

ومفهوم الحديث: أما لو مت أنا قبلك فليس فِي إمكاني أن أفعل كل ذلك، وهذا معنى لا يختلف فيه اثنان من طلاب الحق، اللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

ثُمَّ إن عدول الصحابة عن التوسل به بعد وفاته يدل أيضًا على أن التوسل به لَمْ يكن بالذات؛ إذ لو كان كذلك لما عدلوا عنه لأن جسده الشريف لَمْ يزل ولن يزال محفوظًا فِي قبره إِلَى يوم البعث؛ لأن الله حرم على الأرض أن تأكل

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٦) عن عائشة -رضي الله عنها-.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٦٥) من حديث عائشة -رضي الله عنها-، وانظر التخريج السابق.

جسد الأنبياء كما ثبت ذلك عن رسول الله –عليه الصلاة والسلام– عند الترمذي وغيره[1].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦)...

إطلاقات التوسل

وقد ثبت بالاستقراء أن التوسل يطلق ويستعمل فِي المعانِي التالية:

أولاً: طلب الدعاء من الحي الصالح.

ثانيًا: التقرب إلَى الله بالإيمان والعمل الصالح والتقوى.

ثالثًا: دعاء العبد ربه بالأعمال الصالحة الخالصة لله ودعائه بأسمائه الحسنى.

أما النوع الأول والثانِي: فقد سبق الحديث عنهما.

وأما الثالث: فأستحسن أن أذكر لبيانه قصة أصحاب الغار[1] وهي معروفة وعظيمة، ومضمونُها كالآتِي:

إن ثلاثة ممن كان قبلنا انطلقوا فِي سفر حَتَّى آواهم المبيت إلى غار فدخلوا الغار، فانحدرت صخرة عظيمة فسدت عليهم الغار، فوقعوا فِي حيرة لا توصف فتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون؟ فاتفقوا على أنه لا ينجيهم مِمَّا هم فيه إلا أن يدعو الله بأعمالهم الصالحة الخالصة لوجه الله سبحانه. هكذا هدوا إلَى الطيب من القول، وإلَى الصواب من العمل.

فقال أحدهم: إنه كان له أبوان شيخان كبيران وكان يقوم بالإحسان إليهما وبرهما كأحسن ولد، ومن بره لهما: كان لا يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده وكان عشاؤهم حليب الإبل، وكان يأتِي إليهما بطعامهما فِي وقت مناسب، وفِي ذات ليلة نأى به طلب الشجر لإبله وجاء بعشائهما فِي وقت متأخر من

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-.

الليل، فوجدهما قد ناما فكره أن يوقظهما خشية أن يكدر عليهما نومهما، كما كره أن يتناول هو وأولاده من الحليب المهيأ لهما شيئًا فبات واقفًا على رأسهما إِلَى أن أصبح الصبح.

فقال الرجل متوسلاً إلى الله بهذا العمل الصالح: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فنزلت الصخرة قليلاً غير أنَّهم لا يستطيعون الخروج ولكن قوي أملهم فِي الخروج نوعًا ما.

وأما الثاني: فتوسل إِلَى الله بالعفة والخوف من الله، وبصلة الرحم وملخص قصته: أنه كان له ابنة عم كان يحبها كأشد ما يحب الرجل امرأة، فراودها فامتنعت ورفضت طلبه؛ لأنَّها عفيفة إِلَى أن ألجأتها الحاجة إليه، فقدم مبلغًا من المال يقدر بمائة وعشرين دينارًا كمساعدة لَها وسدًّا لحاجتها، فطلب منها طلبه بعد هذا الإحسان وألح فِي الطلب طبعًا، فوافقت على تنفيذ رغبته تحت الحاجة والاضطرار ونفسها غير مطمئنة بالمعصية، فمكنته من نفسها فقعد منها مقعد الرجل من المرأة، فقالت مذكرة: يا عبد الله اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه، فذكرته فتذكر، وخوفته من الله فخاف: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]. فقام من مقعده ذلكم من فوره مالكًا نفسه، قاهرًا شهوته وهواه، فجعل الهوى يجره إِلَى أسفل ليهوى ويهلك.

إن الهوى لهو الهوان بعينه ... وصريع كل هوى صريع هوان

بينما الخوف من الله يجذبه إِلَى أعلى ليرتفع ويعلو ويقرب من الله، فغلب ثانيهما أولهما ولله الحمد، فسلم الرجل -والحمد لله على سلامته- فقام وهو مرتاح النفس قرير العين، فلم يرجع فِي المبلغ الذي قدمه لابنة عمه بل تركه لَها كصلة للرحم.

فقال الرجل -وهو في الغار-: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه فنزلت قليلاً إلا أنهم لا يستطيعون الخروج أيضًا، ولكن أملهم صار أقوى من ذي قبل.

وأما الثالث: فقد عمل عنده أجراء فأخذ كل أجير أجرته إلا واحدًا منهم فترك أجرته فذهب وبعد مدة طويلة جاء فقال له: أعطني أجرتي. فقال له بكل هدوء: إن ما تراه من الإبل والبقر والغنم من أجرتك؛ لأني نميت لك أجرتك، لما طال غيابك فلك كل ما تراه. ولَمْ يصدقه بل قال له: لا تستهزئ بي يا عبد الله. فقال له: لست مستهزئًا وإنَّما الواقع ما قلته لك فسق مالك. فأخذ ماله كله ولَمْ يترك منه شيئًا.

فقال الرجل -وهو يتوسل إِلَى الله بحفظ الأمانة-: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه. فنزلت الصخرة فخرجوا يمشون.

أيها الإخوة المستمعون: هذا ملخص قصة أصحاب الغار فالقصة تحمل معنيين عظيمين:

أولهما: مشروعية التوسل إِلَى الله بالأعمال الصالحة، وهو المعنى الذي من أجله سقت القصة هنا.

وثانيهما: فضل إخلاص العمل لله وحده؛ لأن الأعمال الثلاثة أو الأربعة الَّتِي شملتها القصة لو لَمْ تكن خالصة لله لما تقبلها الله، ولما أجاب دعوة أصحابها عند الشدة، فالإخلاص هو السبب فِي نجاة العبد، ونجاحه فِي الأولى والأخرى.

هكذا يثبت بالاستقراء أن التوسل فِي الإسلام لا يخرج عن هذه الأنواع الثلاثة، وأما دعاء الله بأسمائه الحسنى فيدخل فِي النوع الثالث، أو يعتبر نوعًا رابعًا والعلم عند الله.

فعلى جُمهور المسلمين أن يعيدوا النظر فِي ذلكم المفهوم الخاطئ الشائع بينهم فِي معنى التوسل، وليس هو من التوسل فِي شيء، بل إن ذلك عبادة محضة وعليهم أن يدرسوا ما كان عليه سلفهم من الصحابة والتابعين فِي هذا الباب ونحوه ليفهموا فهمهم، ويتأسوا بهم فِي عملهم؛ لأنَّهم خير هذه الأمة بشهادة النَّبِي -عليه الصلاة والسلام- لَهم، إذ يقول -عليه الصلاة والسلام-: «**خير الناس قرني، ثُمَّ الذين يلونَهم، ثُمَّ الذين يلونَهم**»(١). أو كما قال -عليه الصلاة والسلام-.

وقد صدق من قال:

وكل خير فِي اتباع من سلف وكل شر فِي ابتداع من خلف

هكذا ننتهي من النقطة الثانية لننتقل إِلَى النقطة الثالثة الَّتِي كثرت فيها المفاهيم الخاطئة وهي:

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

مبحث الصفات

❊ الإيضاح:

إن كثيرًا من المسلمين الذين لَمْ يدرسوا الإسلام وهم ينتسبون إليه يؤمنون بالله، لكنه إيمان إجمالي وضحل جدًّا لا يثبت أمام أدنى شبهة، ولا يتحمل السؤال عن الله ولا عن رسوله -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الموقف لا يثير العجب كثيرًا لأن صاحبه جاهل لَمْ يدرس الإسلام ولَمْ يتفقه فِي الدين، وإن كان مثل خطئه هذا لا يغتفر فعله فِي حق أي مسلم، إذ لا يجوز لمسلم أن يجهل هذا الجهل، ولكن المؤسف جدًّا أو المدهش كثيرًا أن يدرس الإنسان الإسلام، ويصرف جل عمره فِي دراسة الإسلام، ثُمَّ يخرج إِلَى المجتمع من تلك الدراسة الطويلة بنتيجة، هي الجهل بربه جهلاً مركبًا إذ يجهل أنه جاهل، وربَّما تربع على كرسي التدريس والتعليم، لينشر الجهل والمفاهيم الخاطئة بين الناس فيما يعتقدون نحو ربِّهم ودينهم، بدلاً من أن ينشر العلم والمعرفة والهدى فيبعدهم عن الله بدل أن يقربَهم من الله، فيقول مثلاً وهو يريد أن يعرف الناس بالله وبصفاته: فالله لا يوصف بالرحمة، ولا بالمحبة، وليس هو فوق العرش، ولا تحته، ولا يمينه، ولا يساره، ولا يوصف بالرضا، ولا بالغضب إِلَى آخر السلوب الكثيرة الَّتِي يقشعر جلد المؤمن عند سماعها، والَّتِي لا تتضمن إثبات كمال، بل مضمونُها تكذيب الكتاب والسنة من حيث لا يعلم هذا المتخبط، وهي جرأة لا تقف عند حد، ولا تعرف معنى لتقدير الله حق قدره.

فالواجب الذي هو مقتضى الإيمان بالله وبكتابه ورسوله ألا يخوض فِي

صفات الله بغير علم ولا يتحدث عن الله إلا بإذن الله وعلى ضوء بيان رسول الله لأنه لا يصف الله أعلم من الله، ولا يصف الله من خلقه أعلم من رسوله الذي اختاره واصطفاه وأذن له ليتحدث عنه وعن صفاته، بل كلفه ببيان كتابه الذي هو مصدر صفاته بقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤].

والصفات الَّتي سردتُها قد جاء ذكرها في الكتاب والسنة كقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] الآية. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠] الآية. ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢] الآية.

وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**إن الله كتب في كتاب وهو عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي أو غلبت غضبي**»[1]. أو كما قال -عليه الصلاة والسلام- إلى غير ذلك من النصوص الَّتي لا تخضع في الغالب الكثير للتأويل بوجه ما قد تلاها رسول الله على أصحابه وتلاها أصحابه على التابعين وهكذا، ولَمْ يستشكلوا شيئًا منها ولَمْ يتعرضوا لَها بالتأويل، بل آمنوا بهَا وقالوا بالإجماع الذين لَمْ يشذ عنه فرد منهم: إن نصوص الصفات تمر كما جاءت دون تأويل أو اعتقاد تشبيه مع إثبات ما دلت عليه الحقيقة الَّتي تليق بالله سبحانه.

وهذا هو موقف كل إمام من أئمة المسلمين المشهود لَهم بالأمانة، كالأئمة الأربعة وغيرهم كما سنسمع نصوصهم قريبًا -إن شاء الله-.

أما المخالفون لطريقة السلف ومنهجهم؛ والذين تخرجوا على منهج أهل الكلام، والواقعون في مخالفة إجماع الصحابة والتابعين، فقد انشقوا على أنفسهم.

منهم: من ينفي جميع صفات الله تعالى دون أن يثبت له صفة واحدة على

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

كثرة ورودها في نصوص الكتاب والسنة.

ومنهم: من يتصرف في صفات الله كما يشاء، وكما يملي عليه عقله فيفرق بين الصفات، فيرى وجوب تأويل بعضها وجوبًا عقليًّا على حد زعمه، مع إيمانه ببعضها على الوجه الذي يليق بالله، ولا يرى وجوب تأويلها، فيرى مثلاً وجوب تأويل الصفات الخبرية كلها، كالْمَجيء والنُّزول، والاستواء على العرش، وصفة المحبة والرحمة في الوقت الذي يرى إثبات صفة السمع والبصر والعلم مثلاً على ظاهرها كما يليق بالله مع تنْزيه الله عن مشابَهة خلقه ..

والذي يؤخذ على هذا الفريق التناقض البين، وعدم الوضوح في عقيدتهم، عدم الوضوح الذي يوحي أن لعقيدتهم ظاهرًا وباطنًا، ويظهر ذلك جليًّا في مسألة القول بخلق القرآن، حيث لا يرون بأسًا في القول بخلق القرآن في مقام التعليم للبيان الواقع على حد زعمهم، لأن القرآن ليس بكلام الله حقيقة في زعمهم، وإنَّما يقال: إنه كلام الله مجازًا لأنه دال على كلام الله الحقيقي كما يزعمون، وسيأتي تفصيل ذلك -إن شاء الله- قريبًا في مبحث القرآن الكريم.

ومن مظاهر ذلك إعلانُهم أيضًا عن عقيدتهم أنَّها عقيدة أهل السنة والجماعة، ثُمَّ مخالفتهم للجماعة في كثير من المواقف ومن ذلك تفريقهم بين الصفات المماثلة دون مبرر عقلي أو شرعي، كما تقدمت الإشارة آنفًا، وهذا التخبط والتناقض والتفريق بين الصفات الَّتي جمع الله ذكرها والاتصاف بِهَا في كتابه أو على لسان رسوله، هذا التخبط يدل على أن هذا الصنف من الناس ليسوا على يقين في إيْمانهم بكتاب ربِّهم، وما جاء فيه من الصفات والأسماء وغيرهما مِمَّا يتعلق بالمطالب الإلهية؛ إذ لا يتم الإيمان الحق إلا بالتصديق الجازم الذي لا يخالطه شك مدعمًا بالطاعة والانقياد والتسليم لله ولرسوله.

وقد صدق **الإمام الطحاوي إذ يقول**: لا يثبت الإسلام إلا على قدم الاستسلام.

ويقول **الحسن البصري**: ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمنِّي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

أما القول على الله بغير علم، أما التدخل في اختيار الصفات لله، أما الحديث عن الله وعن أسمائه وصفاته بغير إذن من الله، والتخبط في المطالب الإلهية على غير هدى من الله، بل على ما تقتضيه قواعد أهل الكلام وفلسفتهم وأذواقهم، كل أولئك ينافي الإيمان إما أصله أو كماله على حسب ما يقوم بالقلوب وعلى اختلاف ظروف النفاة وأحوالهم من وجود شبهة أو عدمها.

وأحب أن أنبه هنا على قاعدة متبعة عند هذا الصنف، ولا يكادون يختلفون فيها، وتعتبر مادة قانون عندهم يجب تطبيقها، أو آية قرآنية عند غيرهم لا يجوز مخالفتها، وهي مضمون البيت الآتي:

وكل نص أوهم التشبيها أوله أو فوض ورم تنزيها

ومضمون هذا البيت أنه يوجد في الكتاب والسنة نصوص توهم تشبيه الخالق تعالى بخلقه، ولَمْ يبين الرسول تلك النصوص علمًا بأنه مكلف بالبيان، ولَمْ يفهمها سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين على وجهها وصوابها، بل ولَمْ يفطنوا لَها ولما فيها من الإيهام، حتّى جاء أصحاب هذه القاعدة وأرباب هذا القانون بعد انقراض القرون المفضلة ليبينوا للناس ما هو الحق في صفات الله تعالى وأسمائه وفي كلامه بالذات، هذا هو مضمون القاعدة السالفة الذكر.

وهل يقول هذا عاقل يعرف ما يقول؟ ما لَمْ يكن مريض القلب مضطرب العقيدة.

وهل يتهم أصحاب محمد -عليه الصلاة والسلام- بهذه التهمة من في قلبه حب الإسلام وأهله، ثُمَّ إن القاعدة تعطي مطلق الحرية لمن يتلو تلك النصوص بين أن يحرفها ويسمى ذلك تأويلاً، يجعل النصوص تتفق مع العقل -على حد زعمه- أو يعرض عنها ويتجاهلها ويسمى ذلك تفويضًا، يفعل ذلك كله تطبيقًا للقاعدة، واتباعًا للقانون.

ومِمَّا ينبغي التنبيه عليه هنا أن التفويض نوعان:

النوع الأول: تفويض الكيفية والحقيقة، وهو علم استأثر الله بعلمه فلا يجوز للعباد أن يخوضوا فيه كما قلنا سابقًا، أو أن يبحثوا عن كنهها وكيفيتها، لأنهم آمنوا بالله قبل أن يبحثوا عن حقيقة ذاته وكيفية ذاته إيْمان تسليم، فيجب أن يكون إيْمانُهم بصفاته كذلك إيْمان تسليم؛ لأن الكلام فِي الصفات فرع عن الكلام فِي الذات يحذو حذوه، وهذا المعنَى هو الذي عناه الإمام مالك بقوله: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيْمان به واجب والسؤال عنه بدعة".

وقد رأيت أيها المستمع الكريم أن الإمام مالكًا أثبت معنَى الاستواء الذي يدل عليه اللفظ بوضعه، ثُمَّ فوض كيفية الاستواء إِلَى علمه سبحانه، وهو مجهول بالنسبة للعباد.

وما قاله الإمام مالك فِي صفة الاستواء، يقال مثله فِي سائر صفات الله تعالَى؛ لأن الكلام فِي بعض الصفات كالكلام فِي البعض الآخر، إذ ما ثبت لأحد المثلين ثبت للآخر كما هو معلوم.

وأما النوع الثاني: فهو تفويض المعنَى ومعناه الحقيقي هو الإعراض عن النصوص، وعدم تدبرها بل تجاهلها قصدًا وهذا كما ترى يصادم قوله تعالَى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤]. وقوله تعالَى: ﴿أَفَلاَ

يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢].

ومما يعاب على أصحاب هذا النوع من التفويض: التناقض والتصرف الشخصي في نصوص الكتاب والسنة، والجرأة الجريئة -إن صح التعبير- على الله فكيف جاز أن نفهم أو كيف قدرنا أن نفهم معنى العلم والقدرة والسمع والبصر مثلاً، بينما لا يجوز لنا أو لا نقدر أن نفهم معنى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ و «ينزل ربنا». ومعنى المحبة والرحمة والاستواء على العرش؟.

وهو تصرف لا مبرر له -اللهم إلا التقليد- قالوا: قلنا: أولوا فأولنا، وفوضوا ففوضنا، لماذا؟ لست أدري، وهو موقف لا يحل لمسلم أن يقفه في دينه في أصوله، أو فروعه، هذا هو المفروض، والله المستعان.

ثُمَّ إن المدهش أن يسمى هذا التصرف عقيدة أهل السنة والجماعة، فيا ترى من هم الجماعة؟ وما هي السنة؟.

إذا أطلقت الجماعة: إنَّما يراد بهَا الجماعة الأولَى جماعة الصحابة.

أما السنة: فهي طريقة رسول الله الَّتِي جاء بهَا من عند الله.

فهل الجماعة كانت تتصرف مثل هذا التصرف في صفات الله؟ وهل في السنة ما يشير إشارة إلَى مثل هذا؟ قطعًا لا. وإنَّما هي مغالطة سافرة أو جهل مبين.

وقد علمنا علم اليقين أن هذه الطريقة الجهنمية تخالف ما كان عليه أصحاب رسول الله، والحق طبعًا ينحصر فيما كانوا عليه: "**فماذا بعد الحق إلا الضلال**"؟.

وبمثل هذا التخبط وهذه الدعوى العارية عن الحقيقة، دعوى التنْزيه الَّتِي هي في الحقيقة إما تعطيل أو إعراض عن كتاب الله وسنة رسوله، بمثل هذه

الدعوى حال علماء الكلام بين المسلمين وبين عقيدتهم النظيفة البعيدة عن التعقيد، والبريئة عن التشبيه والتعطيل، وبمثل هذا التلبيس أبعدوا شبابنا عن حقيقة دينهم الحق، فأخذ جمهور المسلمين يلتمسون الهدى في غير كتاب الله في بطون كتب أطلق عليها أصول الدين الإسلامي، وهي في الواقع لا من أصول الدين الإسلامي ولا من فروعه.

ويحاولون بذلك أن يعرفوا ربَّهم عن غير طريق رسول الله، وطبيعي أن من التمس الهدى في غير كتاب الله أضله الله كما في الأثر المروي عن علي ﷺ.

*** بيان مذهب السلف في هذه النقطة وذكر بعض أقوالهم:**

وأما مذهب السلف في هذا الباب فواضح جدًّا كشأنه في كل باب، وهو وسط بين التشبيه والتعطيل، وهو تسليم كامل لله ولرسوله وإيمان بنصوص الصفات من الكتاب والسنة، وعدم التعرض لَها بالتأويل بل إمرارها كما جاءت بحيث تكون تلاوتُها تفسرها، ولا يحاولون إدراك حقيقتها وكيفيتها؛ لأن ذلك علم استأثر الله به ولا توهم عندهم تشبيهًا ولا تجسيمًا بل هي تدل على الحقائق الّتي تليق بالله وحده: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى:١١]. ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ [طه:١١٠]. ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص:٤]. ﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ [مريم:٦٥].

كانوا ينَزهون الله على ضوء هذه النصوص، ولا يكادون يفهمون من الإثبات التشبيه ولا من التنْزيه التعطيل، هذه هي القاعدة عندهم للتنْزيه: إثبات بلا تشبيه، وتنْزيه بلا تعطيل، فلنسمع الآن طائفة من أقوال بعضهم:

١ - **قال الإمام الأوزاعي**: كنا -والتابعون متوافرون- نقول: إن الله -تعالى ذكره- فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات. نقل هذا التصريح

عن الأوزاعي والبيهقي في الأسماء والصفات، وهذا التصريح من الأوزاعي يعني الإجماع، إجماع التابعين المبني على إجماع الصحابة المستند إلى صريح الكتاب وصحيح السنة.

والإمام الأوزاعي أحد الأئمة الأربعة الذين كانوا في عصر تابع التابعين وهم مالك بن أنس بالحجاز، والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد بمصر، والثوري بالعراق.

وذكر الأوزاعي هذا الإجماع عندما ظهر جهم بن صفوان منكرًا كون الله تعالى فوق عرشه ونافيًا لجميع صفات الرب تعالى، ذكر الإمام هذا الإجماع ليعرف الناس أن ما نادى به جهم بن صفوان مخالف لما كان عليه سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، ولئلا ينطلي على العامة من المسلمين دعواه أن ما ذهب إليه مؤيد بالبراهين العقلية القاطعة وهي في الواقع وهميات خيالية لا حقيقة لها، إذ العقل السليم لا يخالف ما جاء به النص الصريح الصحيح بوجه كما هو معروف عند أرباب العقل.

٢- **سئل الإمام الزهري ومكحول عن تفسير أحاديث الصفات فقالوا:** أمروها كما جاءت. وروي مثل هذا الجواب عن الإمام مالك والثوري والليث فقالوا جميعًا: في أحاديث الصفات: أمروها كما جاءت بلا كيف. والزهري ومكحول من أعلم التابعين، وأما الأوزاعي ومالك والليث والثوري فمن أئمة الدنيا في عصر تابع التابعين فكيف يسع مسلمًا أن يترك طريقة أئمة المسلمين ويتبع غير سبيل المؤمنين، سبيل الذين أعرضوا عن كتاب الله وذكره واتبعوا أهواءهم: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [القصص:٥٠].

وهم أهل الكلام الذين يقول في حقهم الإمام الشافعي: حكمي في أهل الكلام

أن يطاف بهم في القبائل والعشائر ويضربوا بالجريد، ويقال هذا جزاء من ترك كتاب الله واتبع علم الكلام.

وما أروع قول الإمام مالك إذ يقول: أوكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلى محمد -عليه الصلاة والسلام- لجدل هؤلاء؟.

وبعد؛ فلو أن مسألة من المسائل الفقهية الفرعية نالت مثل هذا الاتفاق العظيم من الأئمة الأعلام دون أن يشذ عنهم أحد، اعتبرت مسألة إجماعية، وعيب على من يخالف هذا الإجماع أشد عيب، بل قامت الدنيا في وجهه وقعدت صارخة أن فلانًا خالف الإجماع، إن فلانًا شذ عن جماعة المسلمين وخرق إجماعهم إلى آخر العبارات التقليدية المعروفة، وآخر الشريط المحفوظ.

فكيف يسوغ لمسلم إذن أن يخالف جماعة المسلمين وأئمتهم الذين سبق ذكرهم في هذا الباب الخطير؟ باب صفات الرب وأسمائه وهو باب توقيفي.

كيف يقدم على ذلك لمجرد اتباع فلسفة أهل الكلام؟ وهي مخالفة لما نطق به الكتاب، وصحت به السنة، وأجمعت عليه الأمة.

ولَمْ يقف هذا المتحذلق عند حد المخالفة بل اتَّهم سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين، وهم سند هذا الدين، اتَّهمهم بعدم الفهم التام، بل اتَّهم كتاب الله بأنه ربَّما اشتمل على ما لا يليق بالله حتَّى يقوم بتحقيقه علماء أهل الكلام والفلسفة الذين يميزون بين ما يليق به بأذواقهم الخاصة وعقولهم النيرة، حتَّى يعرف الناس بواسطتهم مراد الله من كلامه: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٦].

وفي واقع الأمر: أن النص الصحيح لا يفهم منه ما لا يليق بالله ولا يدل بظاهره على الباطل، كالتشبيه والتجسيم، ولا يجوز اعتقاد ذلك بل اعتقاد ذلك

يعني كفرًا وفسوقًا وعصيانًا وظلمًا، ولو كان القرآن كما زعموا لما كان نورًا وهدى ورحمة وروحًا وشفاء لما في الصدور، ولما كان الرسول الذي جاء به هاديًا إلى الله وسراجًا منيرًا ورحمة للعالمين، ولكن الفهم السقيم قد يظن ما زعموا وأكثر مما زعموا: ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم:٢٨].

وكم من عائب قولاً صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

وما كدت أنتهي من كتابة هذه النقطة إلا وأنا بهمسات متلاحقة وهي تقول: يا هذا لماذا تتعب نفسك، وتضيع أوقاتك بنبش قبور علماء أهل الكلام، وقد أفضوا إلى ما قدموا وليس لهم وجود اليوم، وكأنك تتحدث عن العظام وهي رميم، هكذا تقول وتعاتب؟ وللإجابة على هذه الهمسات نحتاج إلى شيء من البسط والإيضاح وقد أجريت استقراء سريعًا فتأكدت أن هذا العتاب يصدر من فريقين:

أما الأول: ففريق ساذج مقلد يكرر ما يقوله الفريق الثاني -الذي سيأتي بيانه- وهذا الفريق ينقصه عدم تصوره الحقيقة على ما هي عليه، فهو معذور عندي بجهله، فعليه أن يدرس الموضوع؛ لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وأما الفريق الثاني: فهو فريق يتجاهل الواقع لحاجة في نفسه فهو يعلم من نعني بأهل الكلام، يعلم أننا إذا تحدثنا عن أهل الكلام وتناقضاتهم إنما نعني المعتزلة والأشعرية، ويعلم أن كتب هؤلاء منتشرة في مكتبات المسلمين وفي أيدي طلاب العلم في كثير من الجهات، وفي مقدمتها كتاب "الكشاف" للزمخشري المعتزلي، و"حاشية الدسوقي على متن السنوسية"، و"حاشية الباجوري عليه أيضًا" وأشباهها من كتب الأشعرية.

وإذا كان مؤلفو هذه الكتب قد صاروا تحت الأرض فكتبهم لا تزال

موجودة على وجه الأرض في أيدي الناس، وهي مقررة في كثير من المعاهد والجامعات في أكثر الجهات الإسلامية مع ما فيها من الأخطاء المخالفة لصريح القرآن وصريح السنة، وهذا المعنى هو الذي حملنا على القول بأن الفريق الثاني متجاهل ومغالط هداه الله، وكان الواجب أن ينصف هذا الفريق -والإنصاف من الإيمان- بعد أن اتضح له الصواب.

نعم؛ كان من الواجب أن يعلن عن الحق ليتبع، فالحق أحق أن يتبع، ويعلن عن الباطل ليعرف ويتجنب، فالواجب أن يفعل ذلك بدل المغالطة خشية أن يدخل تحت وعيد كاتمي العلم الذين يلبسون الحق بالباطل يقول الله -جل ذكره-: ﴿لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١] الآية، مخاطبًا لأهل الكتاب ومعاتبًا لهم، أقول هذا لأنتقل إلى النقطة الرابعة والأخيرة وهي حول المفهوم الخاطئ نحو القرآن الكريم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

القرآن الكريم

القرآن الكريم عبارة عن رسالة بعثها الله إِلَى أهل الأرض من الجن والإنس بعد أن ضمنها كل ما فيه سعادتُهم فِي الآخرة، وسيادتُهم وعزتُهم فِي الدنيا إن طبقوها، وهي مشتملة أيضًا على بيان ما يسبب سخط الرب عليهم إن تعرضوا له، واختار الله لهذه الرسالة رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

اختار لَها محمدًا ليقوم بتلاوتها عليهم وبيانها وشرحها بعد أن أعده إعدادًا خاصًّا أدبه وأحسن تأديبه، ورباه بعناية خاصة، وطبعه على النَّزاهة وحب الخير منذ طفولته، وجنبه كل أمر يشين الإنسان ويشار إليه بسببه ببنان الانتقاص والازدراء، بل جبله منذ خلقه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، كان يُرى منذ كان صغيرًا فِي سنه كبيرًا وعظيمًا فِي سلوكه وعقله ونبله وعبقريته هكذا تربى رسول الهدى، وصاحب الرسالة إِلَى أن بلغ مبلغ الرجال وبلغ أربعين سنة أو قارب، بلغ هذا المبلغ وقومه ينظرون إليه بعين التقدير والإجلال.

وعلى هذا النَّبِي المعظم أنزل الله رسالته، وعلى يد هذا النَّبِي المعد ذلكم الإعداد بعث الله رسالته إِلَى عباده ليتلو الذي أنزل إليهم وكان ﷺ غاية فِي الذكاء والفطنة ودقة الفهم، كما كان غاية فِي البلاغة والفصاحة.

وأما فِي حب الخير للعباد والنصح لَهم والرحمة بعباد الله فحدث ولا حرج، فقرأ عليهم الرسالة وبلغهم مضمونَها وقد يكون فِي الرسالة أحيانًا نوع من الإجمال فيقوم بشرحها وتفصيل الإجمال ويفسره وذلك كمبحث الصلاة

والزكاة مثلاً.

وقد حضر قراءة الرسالة حين نزولها وشرحها وتفسير مجملها نخبة ممتازة من هذه الأمة اختارها الله لصحبة نبيه وليخلفوه من بعده ليواصلوا المسيرة فحضروا قراءة الرسالة ودرسوها وفهموها حق الفهم، وكانوا يقفون عند عشر آيات ليقرءوها ويفهموها ويعملوا بهَا هكذا كانوا يدرسون الرسالة بهذه العناية.

ولفهم الدرس أسباب عديدة وقد توفرت كلها لدى هؤلاء النخبة:

أولاً: المعلم الصالح القدير على التفهيم وهو صاحب الرسالة نفسه.

ثانيًا: المادة وهي الرسالة الَّتي جاءت من عند العليم الحكيم الذي يعلم عنهم كل شيء يعلم ما يصلح لمعاشهم ومعادهم، وما يطرأ على حياتهم ويتجدد من أمرهم، ولذا جاءت الرسالة واضحة ومرنة وميسرة: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾ [القمر:١٧] الآية. جاءت رسالته سلسة الأسلوب بريئة من التعقيد اللفظي والمعنوي والمعلم من عرفناه.

فهذا البيان من أهم الأسباب لفهم الدرس وتوفر السببين المذكورين ساعد أيضًا على تطبيقهم الرسالة فِي حياتهم اليومية، بل على التفاني فِي تطبيقها، فتعلموا من الرسالة التوحيد وتجريد العبادة لله فوحدوه على رغم الجو الجاهلي، وجردوا له العبادة والحاكمية: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ**﴾ [الأنعام:٥٧] الآية. فتعلموا معنَى الأخوة فتآخوا فصدقوا فيها: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ [الحجرات:١٠].

وبالجملة: إنَّهم فهموا أن القرآن كتاب توحيد وعقيدة، ومبحث إيْمان، وكتاب الدنيا والآخرة.

هكذا فهموا القرآن وتلوه حق تلاوته، قاموا به فقام بِهم، نطقوا به وبِهم نطق، وسجل لَهم ذكرًا جميلاً ..

هذا هو القرآن الذي يقول الله تعالى لنبيه في حقه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٤٨].

ويقول الحق أيضًا في شأن القرآن وأهله: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤].

هكذا نزل القرآن، وهكذا فهم أول ما نزل، وهكذا كان موقف سلف الأمة من القرآن. ثُمَّ ماذا؟.

ثُمَّ خلف من بعدهم خلف اختلفوا في الكتاب اختلافًا كثيرًا نتج منه أن فقد القرآن مكانته الَّتي كان يتمتع بهَا عند خير الناس بعد الأنبياء أصحاب رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وأتباعهم.

فرأينا طائفة من أهل الكلام وهم معدودون من أمة القرآن قد وصل بهم الاستخفاف بالقرآن إِلَى حد أن زعموا أن دلالة القرآن ظنية لا تفيد اليقين، وأن الدلالة العقلية هي القطعية المفيدة لليقين، ولو تعارضا قدمت الأدلة العقلية لأنَّها يقينية ودلالة القرآن ظنية وهذا هو موقف حد خطير على إيمان المرء كما ترون، وهل بعد هذا من إيمان؟ بل هذا رجوع بالناس إِلَى ما كان عليه الأمر قبل نزول القرآن إِلَى الوقت الذي كانوا يتحاكمون فيه إِلَى الطاغوت من العادات والعقل والتقاليد الموروثة.

وبناء على القاعدة الَّتي ذكرناها قرر علماء الكلام أنه لا يستدل بنصوص الكتاب والسنة على صفات الله تعالى إلا حين توافق البراهين العقلية القطعية -على حد زعمهم-.

وأخيرًا: قرروا أن القرآن ليس بكلام الله حقيقة، وإِنَّما هو دال على كلام

الله أو عبارة عنه أو ترجمة له، وهذه هي المسألة الَّتي امتحن فيها كثير من علماء المسلمين فِي عهد المأمون العباسي كما هو معروف لدى الجميع، وعذب من أجلها إمام ثقيل الوزن من أئمة المسلمين هو الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله-، وهي بعينها مدونة اليوم فِي كتب القوم وتدرس للشباب السذج الذين لَمْ يتفقهوا فِي دينهم بعد.

بينما نرى هذا الجفاء عند أهل الكلام نرى طائفة أخرى تعزل القرآن عزلاً عن حياة الناس، وإنَّما هو كتاب يتلى فِي بعض المناسبات، مناسبات حزن أو فرح ولا حظ فيه للأحياء أكثر من تلاوته، وترى بجانب ذلك طائفة من الساسة تقف من القرآن موقف المجامل -المجاملة غير المحبة وغير الإيمان طبعًا- فلا بأس عندهم أن يتلى فِي بعض المناسبات الرسمية ويستشهد به فِي بعض المناسبات إن دعت الحاجة إليه.

ويسجل فِي الإذاعة إذا كان المقرئ حسن الصوت، بحيث يحمل المستمع على الطرب، ثُمَّ انتهى كل شيء وكأنه نزل لهذا الغرض نفسه، وأما أن يقرأ للتدبر واستنباط الأحكام منه، وأما أن تساس الأمة على ضوئه وتحت ظلاله ويتخذ دستورًا صالحًا للعصر الحديث كما كان صالحًا للعصور الخالية فهذا أمر لَمْ يدر بخلدهم قط.

وبعد هذا كله هل يصح أو نصدق إذا قلنا: نحن أمة القرآن؟ أين القرآن منا وأين نحن من القرآن؟ بل أين حياتنا من القرآن وأين القرآن من حياتنا؟ ولا حول ولا قوة إلا بالله!!.

وبعد؛ فضروري أن ينتج من هذه المفاهيم الخاطئة الَّتي تحدثنا عنها خطأ أكبر وأخطر ألا وهو: الخطأ فِي مفهوم الإسلام نفسه ..

فمن الناس من يفهم الإسلام فهمًا محدودًا جدًّا، يفهم أنه صلاة وصيام وحج وزكاة وغيرها مِمَّا فِي معنَى هذه العبادات بقطع النظر عن كيفية أدائها.

هل تؤدى على الوجه المطلوب المألوف عادة وتقليدًا؟ كل ذلك ليس بمهم، بل المهم أن تؤدى تحت هذه الأسماء شكليًّا ثُمَّ لا شيء.

هذا هو مفهوم الإسلام عند جمهور المسلمين، ويفهم البعض الآخر أنه يكفيه لنيل لقب "مسلم" أن يحمل شهادة ميلاد تنص أن دينه "الإسلام" وكفى.. ولو لَمْ يكن وراء ذلك شيء من أعمال الإسلام وواجباته بل لو لَمْ يكن وراء ذلك حبة خردل من إيْمان.

ويفهم بعض الساسة أنه يكفي لكونه مسلمًا: أن ينص القانون المتبع فِي بلده أن دين الدولة "الإسلام" هكذا بين قوسين وكفى.. أما كونه يحكم بما أنزل الله أو بغير ما أنزل الله، وهل يحرم ما حرم الله ويحل ما أحل الله أو يعكس؟ وهل يتبع شريعة الله ويطبقها على حياته وحياة رعيته أو يشرع لنفسه ولرعيته تشريعًا جديدًا كما يريد ويهوَى، كل ذلك ليس فِي الحسبان بل كل ذلك لا يضر إسلامه فهو مسلم لا محالة، هذا جانب من الفلسفة الجديدة فِي مفهوم الإسلام اليوم وتعنِي هذه الفلسفة الحرية المطلقة وعدل التقليد بِمفهوم معين فِي مفهوم الإسلام، بل لكل فرد أو لكل جماعة أن تتصور الإسلام وتفهم وتعرف وتحدد كما تشاء وتريد، وليس لأحد حق الاعتراض تقديرًا لحرية الفهم؛ ولأن كل مفهوم أو تصور صحيح.

ومن نتائج هذه الفلسفة ما نراه فِي مجتمعنا الإسلامي من هذه التجزئة للإسلام -إن صح التعبير- بحيث يرى فِي كل مكان أو عند كل جامعة جزء من الإسلام أو شعبة منه، وقد تصغر هذه الأجزاء أو تكبر على حسب التفاوت فِي

الاختيار ودقته، ولا تكاد أن ترى الإسلام كاملاً غير مجزأ في مكان واحد أو عند جماعة معينة.

وهذه الأجزاء نفسها متصرف فيها عند الأداء والتنفيذ تحت تأثير البيئة والهوى، هذا ما آل إليه أمر الإسلام يا أيها المسلمون، وهذا ما انتهى إليه مفهوم الإسلام يا أيها المفكرون والمصلحون، وهذا مفهوم الإسلام في الفلسفة الجديدة يا شباب المسلمين بعد أن كان مفهومه الاستسلام الكامل والانقياد التام لشريعة الله، الَّتي تضمنت أسباب السيادة والعزة في الدنيا وأسباب السعادة في الآخرة، إن عملوا بهَا والله المستعان.

وأخيرًا: ما رأي المصلحين في هذا الموقف الخطير؟ وهل فكر المفكرون الإسلاميون في الحلول الَّتي تنقذ الموقف -والحالة ما وصفنا؟.

فنرجو لَهم التوفيق ليصلوا إِلَى النتائج النافعة في تفكيرهم وسعيهم وإذا كان لابد لِي من رأي أو اقتراح لإنقاذ الموقف وتصحيح المفاهيم فليس أمامنا إلا سبيل واحد في نظري وهو التربية، التربية وحدها، تربية الشباب تربية إسلامية بعيدة عن الجاهلية بجميع صورها، التربية الَّتي يسبقها التخطيط بكل دقة حَتَّى نتمكن من إنشاء جيل جديد واع ينشأ على فهم الإسلام فهمًا صحيحًا وتصور الحياة وفهم جديد لمعنى الحياة الجاهلية.

نريد لعلاج مشكلتنا وإنقاذ الموقف المتدهور جيلاً جديدًا يؤمن بالكتاب كله، ويتصور الإسلام برمته لا أن يجزأ، ثُمَّ يعمل له جادًّا وصادقًا ومخلصًا لا يخاف في الله لومة لائم، أو مخالفة مخالف طالَما هو على الدرب.

ولكن ليس مثل هذا العمل عملاً يتم بين عشية وضحاها، بل لابد لنا من زمن طويل كاف للتخطيط، ولابد من صبر طويل وجميل لأن مدة الانحراف

كانت طويلة جدًّا، فلابد من زمن مماثل لمدة الانحراف أو أطول منها تحت عمل دائب، العمل الذي يتم تحت إشراف خبراء ومفكرين إسلاميين.

ومن أهم الوسائل في هذا الصدد ما يلي:

أولاً: إصلاح المناهج التعليمية في كل بلد إسلامي إصلاحًا جذريًّا شاملاً يجعل تلك المناهج متقاربة إن لَمْ تكن موحدة، ومن أهم أنواع إصلاحها اعتبار المواد الدينية أساسية ويتوسع في دراستها في جميع المراحل، وأن يعتبر الرسوب فيها رسوبًا في جميع المواد المقررة وخصوصًا مادة التفسير والحديث وأصولهما، ومادة التوحيد والفقه بالأدلة والسيرة النبوية مع دراسة الأفكار الهدامة المعاصرة بتوسع.

ثانيًا: إصلاح أجهزة الإعلام حَتَّى تصبح نافعة وصالحة لاستخدامها في الإصلاح والتبليغ والتوعية العامة.

فإصلاح المناهج وأجهزة الإعلام يضمنان لنا صلاح شبابنا بإذن الله، ويقربان المصلحين من درب الإصلاح والتحول من الحياة الجاهلية إِلَى الحياة الإسلامية المنشودة.

ثالثًا: أن يأخذ علماؤنا الأمر بالجدية، ويهتموا بأمر الشباب اهتمامًا جديًّا بدل هذا الإهمال الملاحظ، وبدل هذه السلبية الملموسة، ويكون ذلك الاهتمام على ضوء: **«يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا»**[1].

فاليوم الذي تتوفر لنا فيه هذه الوسائل الثلاثة: إصلاح المناهج، وإصلاح أجهزة الإعلام، واستعداد علمائنا للإصلاح والدور القيادي، وتقديرهم عظم المسئولية وثقل الأمانة ... يوم أن يتم ذلك كله يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله

(١) أخرجه البخاري (٦٩)، ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس ﷺ.

وهدايته وتوفيقه وما التوفيق إلا بالله.

وذلك يعني تحولاً جديدًا في حياة الأمة الإسلامية، وذلك يعني الانتقال من حياة الجاهلية بصورها وألوانها وألقابها إلى حياة الإيمان، حياة العمل والجد، حياة العلم والمعرفة، حياة الطاعة لله، والأنس به، والرضا بشرعه، حياة علم ودين معًا، حياة العزة والكرامة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

وصلى الله وسلم وبارك على خير خلقه محمد وآله وصحبه.

*****

تصحيح المفاهيم

في جوانب من العقيدة

القسم الثاني

دار المنهاج

مقدمة

سبق لي أن تحدثت تحت هذا العنوان في موسم المحاضرات لعام ٩٤-١٣٩٥هـ وتناولت بالحديث النقاط التالية:

١- **العبادة.**

٢- **التوسل.**

٣- **مبحث الصفات.**

٤- **القرآن الكريم.**

ووعدت بأني سوف أعود فأتحدث مرة أخرى تحت العنوان ذاته -إن شاء الله- فهأنذا أعود إلى العنوان -بمشيئة الله- تنفيذًا للوعد المذكور، وأختار هذه المرة النقاط الآتية:

١- **الأولياء والكرامات.**

٢- **الشفاعة.**

٣- **السنة النبوية.**

والذي دفعني إلى الحديث في تصحيح المفاهيم هذه المرة والمرة التي قبلها هو إدراكي التام ما عليه عامة المسلمين -كما يدرك غيري- من تصورات بعيدة عن حقيقة الإسلام في الموضوعات المذكورة وغيرها في جوانب من الإسلام حتى صار البون شاسعًا بينهم وبين المنهج المحمدي الذي أشار إليه النبي -عليه الصلاة والسلام- بقوله: **«تركتكم على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك»**[(١)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٤) من حديث العرباض بن سارية ﷺ، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٤٣٦٩).

وعلى الرغم من هذا التوجيه النبوي المتضمن للإنذار فقد زاغ جمهور المسلمين عن المنهج فصاروا يعملون خارج المنهج في جوانب كثيرة، مغيرين بذلك مفاهيم وتصورات كثيرة ..

فحياة المسلمين اليوم أقرب إلى الجاهلية الّتي قبل مبعث النّبي منها إلى الحياة الإسلامية، مِمَّا جعل حياتهم مغايرة لحياة الرعيل الأول من الصحابة والتابعين الذين أخذوا تلكم المعاني من صاحب الشريعة مباشرة، أو بسند عال .. ولعل سر ذلك انصراف الناس عن دراسة مصادر الإسلام الأصلية، وتسرب كثير من عادات وتقاليد غير إسلامية إلى صفوف المسلمين، كالهندوكية، والبوذية، والثقافة اليونانية. وهذا التركيب المزجي خلّف في صفوف المسلمين ربيبة مدللة ومضللة في الوقت ذاته أطلق عليها "الصوفية"، وكنتيجة حتمية لوجودها كثر المحترفون باسم الدين بعد أن لقبوا أنفسهم برجال السلوك، فسلكوا بأتباعهم غير سبيل المؤمنين وصنفوا أنفسهم كالآتي: "العارفون بالله، والأقطاب، والأوتاد".

أيها الإخوة: لا نعلم أن المسلمين ابتلوا ببلية أو أصيبوا بمصيبة أعظم وأخطر من مصيبة الصوفية، إذ من بابهم دخلت على المسلمين تصورات أجنبية ومفاهيم غريبة لا عهد للمسلمين بِهَا في ماضيهم، بل هي باب لكل بدعة دخلت على عبادة المسلمين وعقائدهم، الّتي منها هذه التصورات الطارئة على المعاني أو النقاط الّتي سوف أتناولها بالبحث في هذه العجالة، محاولاً بيان التصور الصحيح لَها والتصور غير الصحيح لعلي أكون أديت بذلك بعض ما يجب أداؤه من واجب النصح لعامة المسلمين، لأنّي لا أريد بمحاضرتي هذه أداء واجب الموسم الثقافي للجامعة فحسب، بل أرجو أن تصل هذه المحاضرة يومًا ما إلى أيدي من تعنيهم وتتحدث عنهم، وعن سوء فهمهم فتصحح لَهم تصوراتهم تلك بإذن الله

فِي هذه الجوانب.

والله أسأل وبمحبة رسوله ﷺ أتوسل أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم إنه خير مسئول وأكرم مجيب.

وبعد هذه المقدمة الَّتي أرجو ألا تكون مملة نأخذ فِي الحديث عن النقاط الثلاث الَّتي اخترتُها لحديثي هذه المرة على النحو التالي:

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

أولاً: الأولياء

الأولياء: جمع ولي، والولي من تولى الله أمره وخصه بعنايته لصلاحه لأن الله يتولى الصالحين ويحب المؤمنين ويدافع عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج:٣٨]. وفي الحديث القدسي: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بحرب**»(١).

ويعتبر الصلاح والتقوى من العناصر الأساسية في الولاية:

ومن مستلزماتها: العلم.. ونعني بالعلم معرفة الله بأسمائه وصفاته وآلائه جملة وتفصيلاً ومعرفة شرعه الذي جاء به رسوله المصطفى ونبيه المرتضى -عليه الصلاة والسلام-، وقد تولى القرآن الكريم تعريف الأولياء بما لا يترك مجالاً للتردد أو التساؤل أو التوقف: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء:٨٧]. إذ يقول الله -عز من قائل-: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٢-٦٣]. ويقول أيضًا: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤].

وقد حصر القرآن -كما ترى- الأولياء فيمن يتصفون بصفة التقوى، والتقوى تستلزم العلم والمعرفة -كما قلنا- لأن حقيقة التقوى امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات خوفًا من عذاب الله وسخطه وتطلعًا إلى رضائه وجنته وكرامته، ولا يتم ذلك إلا بالفقه في الدين، فالخير كله في الفقه في الدين، كما أن الشر كله في الجهل بالدين والإعراض عنه .. يقول الرسول الكريم ﷺ في هذا المعنى: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية ﷺ.

ولا يخفى على طالب علم المفهوم المخالف للحديث وهو أن من لَمْ يرزق الفقه في الدين قد فاته الخير، وماذا بعد الخير إلا الشر؟

هكذا بين الكتاب والسنة صفات أولياء الرحمن الَّتِي منها: العلم، والمعرفة، والصلاح، والتقوى، وذلك يعني أن الأولياء هم العلماء العاملون والفقهاء المبرزون، حملة كتاب الله المتبعون لسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- لنخلص إِلَى القول: بأن الله لَمْ يتخذ وليًّا جاهلاً يجهل دينه وما جاء به نبيه -عليه الصلاة والسلام-، لنقضي بذلك على الزعم الشائع بين كثير من الناس أن الأولياء هم أولئك الجهال المخادعون من الكهنة، والمشعوذين من السحرة أحيانًا الذين يسحرون أعين الناس ثُمَّ يتظاهرون بفعل أشياء مثيرة.

وهم في الواقع لَمْ يفعلوا شيئًا، وكثير من أولئكم الكهنة يستخدمون الشياطين أو على الأصح تستخدمهم الشياطين لتوحي إليهم، وقد تأتي لَهم بأموال مسروقة فتظن العامة أنَّهم من أولياء الرحمن وما يخبرون به أو ما يأتي إليهم من الأموال من قبيل الكرامات وأنَّى لَهم الكرامة؟ بل الإهانة أولَى بهم. حقًّا إنَّهم مهانون إذ حرموا ولاية الله والأنس به ووقعوا في أسر عدو الله الشيطان فأصبحوا أولياءه: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨].

والذي أريد أن أصل إليه أنه لا تلازم بين الولاية وبين ظهور الأمور الخارقة للعادة، وفي هذا المعنَى يحكى عن الإمام الشافعي -رحمه الله- قوله: **"لو رأيتم رجلاً يطير في الهواء، أو يَمشي على الماء لا تقبلوا منه دعوى الولاية حَتَّى تعرضوا أعماله على الكتاب والسنة"**. أو كلام هذا معناه. يعني الإمام الشافعي -رحمه الله-: أن ظهور الأمور الخارقة للعادة ليس من مستلزمات الولاية، بل قد لا تظهر تلك الأمور على أيدي كثير من أولياء الرحمن؛ لأنَّها ليست من صنع الأولياء، وإنَّما

هي من فعل الرب تعالى الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وقد تظهر تلك الأمور على أيدي أناس غير صالحين كما سبقت الإشارة إِلَى هذا المعنى، وكما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله مفصلاً.

وبالجملة: فإن من رزق الفقه فِي الدين يدرك تمامًا أن باب الولاية أوسع مِمَّا يظنه كثير من العوام وأشباه العوام الذين ضيقوا مفهوم الولاية بل غيروه، فحصروا الولاية فِي بيوت معينة أو أشخاص معينين، يتظاهرون بالدروشة، وخفة العقل، ومبادئ الجنون أحيانًا ويهذون هذيانًا وربَّما أخبروا الناس عن مكان الضالة وعن بعض الحوادث الَّتِي تقع فِي أماكن بعيدة عن أماكن وجودهم بواسطة شياطينهم الَّتِي تنقل إليهم الأخبار من أماكن بعيدة صادقة أو كاذبة.

هذا هو مفهوم الولاية عندهم ولا يخفى وجه خطأ هذا المفهوم، وقد استغل القوم جهل العوام فأثبتوا لأنفسهم منصبًا وراثيًا يرثه الأبناء عن الآباء، فينتقل إِلَى الأبناء بطريقة أوتوماتيكية "تلقائيًا" لأن القاعدة عندهم تقول: كل من كان أبوه وليًّا لابد أن يكون وليًّا ولا محالة؛ لأن الولاية عندهم غير مقيدة بقيود مكتسبة كالعلم والصلاح والتقوى، بل إن واقعهم على العكس من ذلك، إذ يتصفون بالجهل والجرأة على الله، والخروج على شرعه، والابتداع فِي دينه، وكراهة أوليائه وأهل طاعته من العلماء العاملين والدعاة الغيورين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

أقسام الأولياء

يتضح لنا ممَّا تقدم أن الأولياء ينقسمون إِلَى قسمين:

١- أولياء الرحمن الذين تقدم الحديث عنهم وتولى القرآن تعريفهم، وهم الذين تولى الله أمرهم ووفقهم وتفضل عليهم بالكرامات الَّتِي من أعظم أنواعها: معرفة الحق واتباعه، والاستقامة عليه، الاستقامة الَّتِي تنتهي بالعبد إِلَى دار الكرامة "الجنة" نسأل الله من فضله.

٢- أولياء الشيطان الذين وثقوا صلتهم بالشيطان، ونظموا معه حياتَهم بعد أن قطعوا صلتهم بالله، أو ضعفت على الأقل؛ إذ لا يقع العبد فِي ولاية الشيطان وحزبه مع قوة صلته بربه أبدًا، والله المستعان.

وكما أن أولياء الرحمن تتفاوت درجاتُهم عند الله، كذلك يتفاوت أولياء الشيطان فِي بعدهم عن الله، وذلك أمر معروف بحيث لا يحتاج إِلَى دليل.

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الأمور الخارقة للعادة على أيدي أولياء الشيطان

وقد أوضحنا فيما تقدم ألا ملازمة بين الولاية وبين الأمور الخارقة للعادة، وأنَّها قد تظهر على أيدي غير الصالحين، وبقي أن نعرف حقيقة تلك الأمور، فهي تنقسم إِلَى قسمين من حيث الحقيقة والكنه:

١- قسم يجريه الرب سبحانه على أيديهم استدراجًا ليستدرجهم بِهَا ليزدادوا إثْمًا على إثْمهم عقوبة لَهم على جريمتهم، جريمة عبادة الشيطان وطاعته واتِّخاذه وليًّا من دون الله يستدرجهم من حيث لا يعلمون ويملي لَهم، ومن يراها أنَّها من الكرامات فهو إما جاهل أو متجاهل مغالط لحاجة فِي نفسه.

٢- **القسم الثاني**: ما يجري على أيدي بعضهم من قبيل السحر، وقد أثبتت التجربة أن كثيرًا من الدجالين مهرة فِي السحر، فكثيرًا ما يسحرون أعين الناس، فيقوم أحدهم بأعمال غريبة ومثيرة وخارجة عن المعتاد والقانون المتبع فِي حياة الناس مثل أن يلقي بنفسه فِي النار ثُمَّ يخرج منها قبل أن تحرقه أو تصيبه بأي أذى فِي جسمه، ومثل أن يتناول جمرة فيأكلها كما يأكل ثمرة حلوة والناس ينظرون إليه فيندهشون، أو يمشي على خيط دقيق ممدود بين عمودين مثلاً وغير ذلك من الأعمال الَّتِي يعرفها كل من يعرف القوم، وهو فِي واقع الأمر لَمْ يعمل شيئًا من تلك الأعمال بل كان على حالته العادية إلا أنه سحر أعين الحاضرين فيخيل إليهم من سحره أنه يفعل شيئًا وأنه يطير أو يذبح نفسه أو يذبح ولده وكل ذلك لَمْ يقع ولا بعضه.

فالطائفة الأولى: المستدرجة.

والأخرى: السحرة، وهم المعروفون عند السذج من عامة المسلمين أنَّهم

أصحاب الكرامات، ولما أدرك القوم أنه قد انطلى على العوام باطلهم هذا لفرط جهل العوام وبعدهم عن الثقافة الإسلامية استغلوا فيهم هذا الجهل وتلك السذاجة فاتخذوا الولاية المزعومة بابًا من أبواب الدجل، فكما يطور أهل العلم معلوماتِهم، وأرباب المهن والصناعات مهنهم وصناعاتهم حتَّى ينتجوا أحدث المصنوعات، كذلك يطور هؤلاء الأولياء أساليب دجلهم وخداعهم ليطير صيتهم وتزداد شهرتُهم، فيرتفع بذلك دخلهم وهذا الدخل هو الغاية عند القوم من دعوى الولاية والكرامة ومن الخداع المتطور.

ومن أحدث أساليبهم المتطورة فِي هذا العصر: أن زعم بعضهم أن هذه التكاليف الشرعية من امتثال المأمورات واجتناب المنهيات أمور مؤقتة ولَها حد تنتهي إليه ثُمَّ تسقط، وزعم هذا الزاعم أنه قد وصل تلك الْمَنْزلة فسقطت عنه جميع الواجبات وأبيحت له جميع المحرمات بحيث لا يقال فِي حقه: هذا حرام أو حلال، أو هذا واجب وهذا مستحب. وهو يحاول بذلك أن يقتفي أثر رئيس الملاحدة وقطب وحدة الوجود: ابن عربِي الطائي، وشاعر تلك الملة ابن الفارض ومن يحذو حذوهما، وتبدو الفكرة جديدة ومتطورة لدى كثير من الناس لغرابتها، ولما أدخل عليها من بعض الزخرفة والزركشة حتَّى ظهرت الفكرة كأنَّها فكرة حديثة، وهي فِي أصلها فكرة قديْمة قدم كفر وحدة الوجود الَّتِي منشؤها تعطيل الصفات على طريقة الجهمية المعروفة وهي فكرة يؤمن بِهَا كل صوفي -وللأسف- ويسعى لَها بأنواع من المجاهدة فِي زعمهم وهو سر انتقادنا للصوفية وشطحاتهم.

وما يؤخذ عليهم كثير جدًّا لو وسعنا التعداد، ولا يشك كل من له أدنَى فقه فِي الدين أن فكرة وحدة الوجود ملة مغايرة للإسلام وآخر التطورات الَّتِي

علمناها في هذا الخصوص، دعوى محمود محمد طه السوداني حيث زعم أن تلكم الفكرة الإلحادية الَّتي يدعو إليها هي مضمون الرسالة الثانية من الرسالتين المحمديتين على حد زعمه حيث زعم أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- بعث برسالتين اثنتين.

أما الرسالة الأولى فقد بلغها، وأما الثانية فلم يبلغها. ويعلل ذلك بقوله: إن القوم الذين بعث فيهم رسول الله أول ما بعث ليسوا على استعداد لفهمها والعمل بِهَا لأن مستواهم العقلي لا يؤهلهم لفهمها، أما الآن وقد نضجت العقول وتقدم الفكر البشري فقد آن الأوان للدعوة إليها والعمل بِهَا، إِلَى آخر تلك الجعجعة المثيرة للضحك والبكاء فِي وقت واحد.

نعم؛ إنَّها تثير الضحك إذا نظرت إليها ككلام ساقط ليس له أي قيمة علمية، وإنَّما هو هذيان لا ينطلي على العقلاء، ومثيرة للبكاء حيث وصلنا نحن المسلمين إلى هذا المستوى من البرودة وضعف الغيرة على شريعة الله الَّتي يتلاعب بِهَا أمثال محمود، ولا يجد رادعًا يوقفه عند حده، بل لا توجد غضبة إسلامية يحسب لَها حساب فِي المجالات الرسمية، والله المستعان.

ولعل بعض الحضور يحسب أنني أتحدث عن أساطير الأولين، وليس الأمر كذلك بل إن صاحب هذه الدعوة حي يرزق بمقربة منا فِي السودان -كما قلت آنفًا- ولا يزال يعمل جادًّا لهدم الرسالة الأولى وليقيم على أنقاضها الرسالة الثانية المزعومة -لو استطاع إِلَى ذلك سبيلاً- وفِي الواقع إن الرجل مدع للنبوة ولكنه لَمْ يستطع التصريح بِهَا خشية أن يغضب الشعب السوداني غضبة إسلامية فتكون نهاية له، لكنه لدهائه ولباقته استطاع أن يتظاهر بمظهر المصلح المجدد، علمًا بأنه ليس لديه أي جديد، بل تنحصر فكرته فِي عقيدة وحدة الوجود الَّتي يرأسها ابن

عربي الطائي، الملقب بمحيي الدين مع عاشقهم المعروف بابن الفارض، ومن يدور في فلكهما -كما سبق أن أشرت- مع محاولة السير مع الوادي حيثما توجه شرق أم غرب، كعادة المحترفين باسم الدين أو التجديد.

والمسألة في الأصل -كما قلت- نتيجة حتمية لعقيدة غلاة الجهمية الذين يعطلون جميع صفات الرب تعالى وأسمائه، حَتَّى لا يبقى هناك إلا ذات مجردة عن جميع الصفات والأسماء الَّتِي لا يتصور لَها وجود فِي الخارج -أي خارج الذهن- وإِنَّما يتصوره الذهن كما يتصور المحال والأمور الخيالية، وهذه العقيدة هي الَّتِي أفضت بالقوم إِلَى القول بالحلول والاتحاد، ليتحقق وجود الله خارج الأذهان حالاً فِي مخلوقاته ومتحدًا معهم، هذا هو منشأ الحلول والاتحاد الذي هو آخر منْزلة تنتهي إليها الصوفية ولَها يسعون، وفيها يتنافس المتنافسون منهم، وهذه الفكرة كفر باتفاق المسلمين لأنَّها تجعل الرب سبحانه حالاً فِي مخلوقاته، بل يرى شارح الطحاوية أن فكرة الحلول والاتحاد أقبح من كفر النصارى؛ لأن النصارى خصوا الحلول بالمسيح، وهؤلاء عمموا جميع المخلوقات، وقديْمًا قال زعيمهم ابن عربي:

وما الكلب والخنْزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب فِي كنيسة

هذا ما ينتهي إليه أولياء الشيطان، وما قبل هذه المنْزلة وسائل مفضية إِلَى هذه الغاية، وما أرخصها من غاية وما أقبحها من كفر، وهو داء لا علاج له إلا آخر العلاج، وآخر العلاج الكي، فلا يردع هذا الإلحاد إلا قوة السلطان؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن كما قال عمر بن الخطاب ﷺ، ولكن أين قوة السلطان اليوم؟! إلا ما شاء الله.

ثانيًا: الكرامات

إذا كنا تحدثنا عن الأولياء، وصفاتِهم، وأقسامهم، واستطردنا إلَى بعض تصرفات أولياء الشيطان الَّتِي يظنها بعضُ الناس أنَّها من الكرامات، وبينا أنَّها لا علاقة لَها بالكرامة، إذا كنا قد تحدثنا هذا الحديث فلنتحدث الآن عن الكرامات، وعن موقف الناس منها، بل إننا قد استطردنا لمفهوم الكرامة لدى أتباع أولياء الشيطان، وبينا تصورهم الخاطئ، فلنحصر بحثنا هنا فِي كرامات أولياء الرحمن وتحقيق القول فِي ذلك بتوفيق الله.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

موقف المعتزلة من كرامات الأولياء

انقسم الناس في مسألة كرامات أولياء الرحمن إلى قسمين: ناف، ومثبت، وعرفت المعتزلة من بين الطوائف المنتسبة إلى الإسلام بنفي كرامات الأولياء، بدعوى أن إثباتها يوقع في لبس، إذ تلتبس الكرامة بمعجزة الأنبياء، وليس لديهم أي دليل أو شبه دليل سوى هذه الدعوى، وهي دعوى كما ترى لا تنهض لمقاومة النصوص الصريحة التي سيأتي ذكرها إن شاء الله، وقد ناقشهم كثير من أئمة الهدى الذين عرفوا بمناضلة أهل البدع والهوى وفي مقدمتهم الإمام ابن تيمية في كتابه **"الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان"** وكتاب **"النبوات"** كما ناقشهم الإمام الشوكاني في بعض رسائله مثل رسالته التي سماها **"بحث في الاستدلال على ثبوت كرامات الأولياء"** ومن أراد الاطلاع على شبههم ودحضها فليراجع تلك المراجع.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

موقف أهل السنة من كرامات الأولياء

أما أهل السنة فقد أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء اعتمادًا على النصوص الَّتي سنذكرها الآن إن شاء الله، وفي الإمكان سرد كلامهم والوقائع الَّتي ذكروها، ولكنِّي أرى الاكتفاء بما جاء في كتاب ربنا الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد نضيف إلَى آيات الكتاب ما صح عنه -عليه الصلاة والسلام- في السنة المطهرة، فنكتفي بذلك لأن فيهما الغنية لمستغن، وقد قص الله علينا في كتابه العزيز عن صالحي المؤمنين الذين لَمْ يكونوا أنبياء وكراماتهم المتنوعة.

فلنستمع إلَى هذا النموذج من كراماتهم:

أ- قصة أولئك الفتية الذين آمنوا بربِّهم، وثبتوا على إيمانهم وسط تلك البيئة الكافرة بعيدين عن المداهنة، وقد قص القرآن علينا قصتهم البطولية إذ يقول الله -عز من قائل-: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف:٩]. إلَى أن قال وهو يصفهم بالإيمان والهدى والثبات: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف:١٣-١٤].

فطبيعي أن هذا ليس موقف أناس عاديين، ولكن الله أكرمهم بالإيمان والثبات على الهدى، فصارحوا جبابرة قومهم بأنهم لا يدعون مع الله أحدًا، وهو إعلان بالكفر بآلهة قومهم مع الثبات على الإيمان بالله وحده، وهذه كرامة وأي كرامة.

ب- قصة مريم الَّتي حكاها القرآن إذ يقول الرب تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران:٣٧]. إِلَى آخر الآية، ويقول في موضع آخر: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥].

ج- قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة وهم في الغار[1]، وقصتهم معروفة لدى جمهور الحاضرين وهم أولئك الذين خرجوا في سفر ما ولَمَّا أدركهم الليل دخلوا غارًا في الجبل ليبيتوا فيه، وفي أثناء الليل سقطت صخرة عظيمة من عل فسدت عليهم باب الغار، فوقعوا في حيرة من أمرهم، فتشاوروا، فقرروا أنه لا ينجيهم مِمَّا هم فيه إلا الالتجاء إِلَى الله فيدعونه بالأعمال الصالحة الَّتي عملوها مخلصين له.

فتوسل أحدهم إِلَى الله ببر الوالدين إذ كان له أبوان شيخان كبيران وكان يحسن إليهما ويبرهما كأحسن ولد، ومن بره بهما أنه كان لا يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده، وكان عشاؤهم حليب الإبل ومن عاداته أنه يقدم لهما عشاءهما في وقت مناسب، وفي ذات ليلة نأى به طلب الشجر لإبله، وجاء بعشائهما في وقت متأخر من الليل فوجدهما قد ناما، فكره أن يوقظهما خشية أن يقطع عليهما نومهما فيعكر راحتهما كما لَمْ يستحسن أن يتناول عشاءه قبلهما هو وأولاده، فظل واقفًا على رأسهما رجاء أن يستيقظا في أثناء الليل ولَمْ يستيقظا إِلَى أن أصبح الصبح وهو واقف والحليب في يده، فتذكر هذا العمل الجليل فدعا الله به فأكرمه الله وأجاب دعوته، فنزلت الصخرة قليلاً حَتَّى دخل لَهم الهواء فطمعوا في الخروج.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما-.

وأما الآخر: فتوسل إِلَى الله بعفته والخوف من الله، وملخص قصته أنه كانت له ابنة عم وكان يحبها كأشد ما يحب الرجل امرأة، فراودها فامتنعت ورفضت طلبه إِلَى أن ألجأتها الحاجة إليه فقدم لَها مبلغًا من المال يقدر بمائة وعشرين دينارًا تقريبًا مساعدة لَها وسدًّا لحاجتها فأعاد المراودة بعد هذا الإحسان -فطالما استعبد الإحسان إنسانًا- وألح فِي طلبه طبعًا، وأخيرًا وافقت على تحقيق رغبته تحت إلحاحه وتأثير الإحسان ونفسها غير مطمئنة بالمعصية، فمكنته من نفسها فقعد منها مقعد الرجل من المرأة، فصرخت فِي وجهه قائلة: اتق الله يا عبد الله، لا تفض الخاتم إلا بحقه -تعني: إلا بنكاح وبطريقة شرعية-.

هكذا ذكرته بالله فتذكر لأنه مؤمن: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥]. فقام من مقعده ذلكم فورًا مالكًا نفسه قاهرًا شهوته وهواه وهو موقف صعب كما ترون.

هذا ملخص قصة صاحب العفة فقال وهو فِي الغار: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فأجاب الله دعوته وأكرمه بكرامته فتزلت الصخرة مرة أخرى بيد أنَّهم لا يقدرون على الخروج، ولكن أملهم صار أقوى فِي الخروج من ذي قبل ولا شك.

وأما الثالث: فتوسل إِلَى الله بحفظ الأمانة، إذ عمل عنده أجراء كثيرون فأخذ كل أجير أجرته فذهب إلا واحدًا منهم فترك أجرته، وبعد مدة طويلة جاء فطلب أجرته فقال له: إن كل ما تراه من الإبل والبقر والغنم من أجرتك لأنِّي نميتها لك لَما طال غيابك خشية أن تضيع، ولَمْ يصدقه، بل قال: لا تستهزئ بي يا عبد الله! فقال له: لست مستهزئًا بك، وإنَّما الواقع ما قلته فسق مالك، فأخيرًا أخذ أمانته بنمائها وزيادتِها.

فقال الذي حفظ الأمانة وهو يتوسل إلى الله بعمله هذا: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا ما نحن فيه، فأجاب الله دعوته وأكرمه بإخلاصه وصدقه، فنزلت الصخرة فخرجوا يمشون، وهذا ملخص قصة الثلاثة.

ومما يدل على ثبوت الكرامات من السنة قوله -عليه الصلاة والسلام-: **«رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره»**[1].

وقصة أسيد بن حضير وعباد بن بشر الأنصاريين وملخصها: أنهما كانا عند النبي -عليه الصلاة والسلام- في ليلة ظلماء، فلما خرجا أضاءت عصا أحدهما فمشيا في ضوئها، فلما افترقا بهما الطريق أضاءت عصا الآخر فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله[2]، والقصة في صحيح البخاري في كتاب مناقب الأنصار.

وقوله -عليه الصلاة والسلام- في حديث أبي هريرة عند البخاري في فضائل الصحابة: **«لقد كان فيمن قبلكم من الأمم أناس محدثون فإن يكن في أمتي أحد منهم فإنه عمر»**[3]. وفي لفظ: **«لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد فعمر»**[4].

وأكتفي بهذا المقدار من نصوص الكتاب والسنة التي تثبت دون شك كرامات الأولياء، وهناك نصوص أخرى كثيرة مرفوعة أو موقوفة، وكلها تثبت لكثير من الصحابة -رضوان الله عليهم- كرامات أكرمهم الله بها.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٣٩) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٢٣٩٨) من حديث عائشة.

(٤) أخرجه البخاري (٣٦٨٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ومن راجع كتب الحديث، وكتب السير يرى الشيء الكثير من الوقائع في هذا المعنَى، وإذا كان كذلك فلا حاجة بنا إِلَى سرد قصص أو روايات لإثبات كرامات الأولياء من أقوال التابعين وتابعيهم ومن بعدهم إِلَى يوم الناس هذا، ليقيني الذي لا يخالطه شك بأنكم أكثرُ تطلعًا إِلَى سماع النصوص منكم إِلَى سماع القصص والحكايات والروايات، وهو موقف محمود تغبطون عليه، ولله الحمد والمنة.

وبعد؛ لعلي وصلت بهذه المحاولة إِلَى بيان التصور الصحيح في مسألة الأولياء وكراماتهم على ضوء الكتاب والسنة، كي يتبين الحق من الباطل، **والحق أبلج، والباطل لجلج، وهو وسط بين التفريط والإفراط.**

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الموقف السليم من الأولياء

إذا كنا قد تحدثنا عن الأولياء والكرامات، وأثبتنا الولاية بشكل واضح ودعمنا حديثنا بنصوص الكتاب والسنة، ثُمَّ أثبتنا الكرامات كذلك إثباتًا يعتمد على الكتاب والسنة، بقي أن نفهم ما هو الموقف السليم فِي معاملة الأولياء فِي نظر الإسلام؟.

وقبل أن أجيب على هذا التساؤل أستحسن أن أوضح السبب المثير لهذا التساؤل، وذلك هو موقف جمهور المسلمين المحزن من الأولياء وهو الغلو فِي الصالحين الذي يصل أحيانًا إِلَى حد العبادة، بدعوى المحبة والتقدير، ومن يذهب إِلَى تلك الأضرحة المنتشرة فِي أكثر عواصم المسلمين ومدنهم يرى عددًا كبيرًا من المسلمين معتكفين عند تلك الأضرحة ليتبركوا بِهَا أو بأصحابها، وربَّما وصل هذا التبرك إِلَى حد الطواف بالضريح، بل إِلَى حد السجود على عتبة باب الضريح والأدهى والأمر أن يجد هذا السادن الذي يسجد لغير الله ولا يلهج لسانه إلا بذكر صاحب الضريح من يفتِي له بجواز ذلك، وأنه ليس من باب الشرك، وإنَّما هو من باب محبة الصالحين أو التوسل بِهم، وهذا المفتِي -أو الفتان على الأصح- معدود من علماء المسلمين المشار إليهم، والله المستعان وإليه المشتكى.

إنه لموقف خطير: العامي يقع فِي عبادة غير الله جهلاً، والعالم يفتِي بجواز ذلك ويجد له تفسيرًا وتأويلاً وتخريجًا، وخطورته تأتِي من حيث أصبح الولي ندًّا لله فِي هذا التصور وشريكًا له فِي استحقاق العبادة باسم المحبة أو التبرك بفتوى ممن ينتسبون إِلَى العلم ويجهلون حق الله على عباد الله.

أعود فاقول: هذا الموقف وهذا التصور الذي يسود صفوف العوام وأشباه العوام هو الذي أثار تساؤلي:

ما هو الموقف السليم من الأولياء؟!.

فأما الجواب عليه: أن الموقف السليم هو عدم الغلو فيهم مع عدم الجفاء والاستخفاف بهم وإيذائهم، بل الواجب محبتهم في الله وموالاتهم، ولك أن تطلب منهم الدعاء في حياتهم ويسمى الاستشفاع بهم، أو التوسل بهم.

ويجب أن نفرق بين محبتهم في الله ومحبتهم مع الله، فمحبتهم في الله عمل صالح، وأما محبتهم مع الله فعمل غير صالح بل هو بريد الشرك أو هو الشرك ذاته، ويختلف ذلك باختلاف ما يقوم بقلب العبد وسر التخبط لدى كثير من المسلمين والخلط في عباداتهم هو عدم التفريق بين الحقوق مما جعلهم يصرفون كثيرًا من حقوق الله على العباد للعباد أنفسهم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الحقـوق الثلاثـة

إن الدارس لكتاب الله وسنة رسول الله، والفاهم لمعنى كلمة التوحيد حق فهمها يستطيع أن يستنتج الحقوق الثلاثة الَّتي يأتي شرحها، ومعرفة تلكم الحقوق تحدد للعبد طريق السير إلَى الله والدعوة إليه على بصيرة قبل أن يخلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا، ويخرج عن الصراط المستقيم ويتخبط فِي ثنيات الطريق.

١- **حق الله على عباده:** وهو أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا فِي عبادته وذلك بعد تصور مفهوم العبادة بأوسع نطاقها، وقد وجه النَّبِي -عليه الصلاة والسلام- سؤالاً إلَى معاذ ذات مرة هكذا: «**يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟**». ولَمْ يسع معاذًا إلا أن يقول: الله ورسوله أعلم، فقال النَّبِي -عليه الصلاة والسلام- بعد أن أثار انتباهه -ولعلها المقصودة من السؤال- قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**»[(١)]. الحديث، وهو معنى قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

٢- **حق الرسول على أتباعه:** الذي يؤخذ من قولهم: أشهد أن محمدًا رسول الله، وحقيقة ذلك محبة رسول الله -عليه الصلاة والسلام- المحبة الصادقة الَّتِي تثمر الطاعة والاتباع، وعبادة الله بما جاء به فقط، وهو المعنى الذي يشير إليه الحديث الشريف: «**لا يؤمن أحدكم حَتَّى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[(٢)].

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس ﷺ.

٣- **حقوق عباد الله الصالحين:** تلك الحقوق الَّتي نستطيع أن نستنتجها من قوله -عليه الصلاة والسلام-: «**لا يؤمن أحدكم حَتَّى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١). وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**لا تدخلون الجنة حَتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حَتَّى تحابوا**»(٢). الحديث، وقوله -عليه الصلاة والسلام-: «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بحرب**»(٣). وغير ذلك من النصوص الكثيرة.

فمعرفة هذه الحقوق، ثُمَّ إعطاء كل ذي حق حقه أمر له أهميته ولاسيما حق الله على عباده، تجب العناية به علمًا وعملاً لأنه الغاية الَّتي من أجلها خلق الإنسان، والتقصير فِي هذه الغاية ذنب لا يغتفر إلا لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا.

وهذا التقصير واقع من كثير من المسلمين -مع الأسف الشديد- وهو سر اختيارنا لهذه النقطة ضمن النقاط الثلاث. رجاء أن ننبه إِلَى هذا الخلط الشائع بين جمهور المسلمين من إدخال بعض الحقوق فِي بعض، بل وصرف كثير من حقوق رب العالمين لعباد الله الصالحين بدعوى محبتهم كنتيجة لهذا التقصير، والله المستعان.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥) من حديث أنس ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الشفاعة

فلفظ الشفاعة من الألفاظ الّتي تغير مفهومها عما كان عليه في عرف الصحابة ولغتهم:

استشفع أو توسل بفلان: أي طلب منه الدعاء لتقضى حاجته عند الله من إنزال المطر أو دفع الضر أو جلب المنفعة.

فالاستشفاع بالنبي -عليه الصلاة والسلام- في حياته أو التوسل به هو طلب الدعاء منه، وهذا أمر لا نزاع فيه لدى الصحابة وأتباعهم. وقد كان الصحابة يستشفعون به في عدة مناسبات، مثل مناسبة القحط ليغيثهم الله بدعائه -عليه الصلاة والسلام- وقد يأتي إليه من فقد بصره فيطلب منه الدعاء ليرد الله له بصره فيدعو له النّبي -عليه الصلاة والسلام- ويأمر الأعمى أن يدعو الله ليجيب الله دعاء نبيه له فيفعل الأعمى ما أمر به فيرد الله له بصره بدعائه -عليه الصلاة والسلام- وشفاعته، وتشفع الأعمى به، وقصة الأعمى معروفة لدى طلاب العلم.

وقد كان الأعرابي يأتي إلى النّبي -عليه الصلاة والسلام- وهو يخطب خطبة الجمعة فيقول: «يا رسول الله انقطعت السبل، وهلكت الأموال، ادع الله يغيثنا، فيرفع رسول الرحمة يديه إلى السماء فيدعو الله تعالى فيغيثهم الله»[1].

هذا وغيره يسمى شفاعة ويسمى توسلاً.

وقد تغير هذا المفهوم لدى كثير من الناس فترى أحدهم يدعو رسول الله

---

(١) أخرجه البخاري (١٠١٤)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس ﷺ.

-عليه الصلاة والسلام- أو يدعو عبدًا صالحًا يطلب منه ما لا يطلب إلا من الحي القيوم .. يطلب منه شفاء مريضه .. يطلب منه نزول المطر.. يطلب الولد.. إِلَى غير ذلك من المطالب.

وإذا قيل له فِي ذلك قال: هذا استشفاع أو توسل أو هذه محبة الصالحين فلنقارن بين المفهومين: الأعرابي يذهب إِلَى رسول الله فِي مسجده، فيطلب منه الدعاء، فيقول فِي طلبه: ادع الله يغيثنا، والأعمى يتكلف الذهاب إلى النَّبي -عليه الصلاة والسلام- فيطلب منه الدعاء ليرد الله له بصره.

أما اليوم: قد نرى من يجلس فِي منْزله -أينما كان منْزله- فيطلب نزول المطر، أو رد الضالة، أو غلبة العدو وما إِلَى ذلك من المطالب، فيقول فِي طلبه: أغثني يا رسول الله أغثنا يا جيلانِي، المدد يا حسين.. إِلَى غير ذلك من العبارات الوثنية الَّتي صارت مألوفة لدى جماهير المسلمين وللأسف الشديد.

أولاً: لا يكلف نفسه الذهاب إِلَى من يستشفع به أو يتوسل به.

ثانيًا: يوجه الطلب للمخلوق دون الخالق ثُمَّ يسمي هذا الطلب توسلاً أو استشفاعًا، ولو حاولت توجيهه اُتُّهمت بأنك لا تحب الصالحين، وتنكر التوسل بِهم، بل ولا تحب رسول الله، إِلَى آخر تلك العبارات التقليدية الَّتي يرددها علماء السوء ومقلدوهم الذين حالوا بينهم وبين المفهوم الصحيح فِي كثير من المعانِي الإسلامية. عاملهم الله بما يستحقون!.

كم استغلوا جهل الناس وسذاجتهم وطيبة نفوسهم، فصاروا لَهم حجر عثرة فِي سبيل فهم الإسلام.

المفهوم الصحيح للشفاعة

نعود فنقول: لا نزاع بين جمهور الأئمة من أهل السنة أنه يجوز أن يستشفع بالنبي -عليه الصلاة والسلام- في الدنيا في حياته، كما سبق أن أشرنا إلى قصة الأعرابي وهي في صحيح مسلم، وقصة الأعمى المعروفة عند أهل السنن.

كما يشفع -عليه الصلاة والسلام- يوم القيامة لأهل الكبائر من أمته الذين استوجبوا النار ليدخلوا الجنة بشفاعته -عليه الصلاة والسلام-، ولَمْ ينكر هذه الشفاعة إلا الخوارج والمعتزلة بناء على أصلهم المعروف من أن صاحب الكبيرة مخلد في النار مع الكفار، وهو أصل باطل مصادم للنصوص كما لا يخفى.

ومن أعظم الشفاعة لرسول الله -عليه الصلاة والسلام- شفاعته لأهل المَحشر حين يعتذر أبو البشر وجميع أولي العزم من الرسل ويقول كل واحد منهم: نفسي نفسي، إن الله قد غضب اليوم غضبًا لَمْ يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي. في ذلك الموقف الرهيب يتقدم أهل المَحشر إلى سيد ولد آدم -عليه الصلاة والسلام- فيطلبون منه الشفاعة عند الله، فيقول -عليه الصلاة والسلام-: «أنا لَهَا». فيسجد تحت عرش الرحمن سجدة طويلة يثني فيها على الله ثناء ويحمده حمدًا كثيرًا، ويفتح الله عليه من الثناء ما لا يعلمه قبل ذلك، كما صح عنه -عليه الصلاة والسلام- في أحاديث الشفاعة ثُمَّ يقال له: «**يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع**»(١).

وقد صح عنه -عليه الصلاة والسلام- عند مسلم وأبي داود قوله: «**أنا أول**

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس ﷺ.

شافع وأول مشفع، وأول من ينشق عنه القبر»[١].

وله ﷺ أنواع من الشفاعات في الآخرة كما ذكرنا أن له أنواعًا من الشفاعات في الدنيا، ومعنى الشفاعة في كلتا الدارين لا يخرج عما ذكرنا من أنه طلب الدعاء، ويلتقي معنى التوسل والشفاعة عند هذا المعنى بالذات كما اتضح ممَّا يؤيد ما ذكرنا أن أصحاب رسول الله الذين رأيناهم يستشفعون برسول الله في حياته، رأيناهم مرة أخرى قد عدلوا عن التوسل أو الاستشفاع به -عليه الصلاة والسلام- بعد وفاته، فجعلوا يتوسل بعضهم ببعض ويستشفع بعضهم ببعض؛ ففي عام الرمادة أصيب أهل المدينة بجفاف، فجمع عمر بن الخطاب المسلمين في صعيد واحد في المدينة فقال: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبيك فتسقينا، والآن نتوسل إليك بعم نبيك فاسقنا». فطلب من العباس عم النَّبي الدعاء، فدعا الله فأغاثهم الله[٢].

وهكذا فعل معاوية بن أبي سفيان مع الأسود بن اليزيد عندما أصيب المسلمون في الشام بالقحط جمع الناس فطلب من الأسود بن اليزيد أن يدعو الله تعالى، فدعا الله تعالى فأجاب دعاءه فأغاثهم الله تعالى، ولو كان معنى التوسل عندهم كما يظن هؤلاء العوام وأشباههم من الذهاب إلى قبور الصالحين، أو المراد بالتوسل بالصالحين هو التوسل بذواتهم لما عدلوا عنه -عليه الصلاة والسلام-، بل لذهبوا إلى قبره فدعو الله عند قبره أو توسلوا بذاته لأن جسده الطاهر لا يزال في قبره؛ لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجسام الأنبياء كما

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٠١٠) عن عمر رضي الله عنه.

صح ذلك عنه -عليه الصلاة والسلام-[١].

فعدولهم -رضوان الله عليهم- عنه واستشفاع بعضهم ببعض يؤيد ما قررنا من أن معنى الاستشفاع أو التوسل هو طلب الدعاء من الحي الصالح.

يقول شيخ الإسلام بن تيمية فِي صدد حديثه فِي هذا المعنَى: يقول العلماء: يستحب أن يستسقى بأهل الدين والصلاح. وإذا كان بأهل بيت الرسول فهو أحسن[٢].

كأن شيخ الإسلام يشير إِلَى صنيع عمر مع العباس عم النَّبِي -عليه الصلاة والسلام- حيث استسقى به لأنه عم النَّبِي -عليه الصلاة والسلام-، وكان سر اختياره كونه من أهل بيت الرسول ﷺ.

وبعد..

فلو درس المسلمون حياة الصحابة وعرفهم واصطلاحاتهم بل ولغتهم، ثُمَّ حاولوا أن يطبقوا حياتَهم على حياة أولئك السادة لساعدهم ذلك على تصور هذه المعانِي الَّتِي ساءت فيها مفاهيمهم، وأخذوا يخلطون عملاً صالحًا وآخر سيئًا، ويتخبطون فِي عباداتِهم وجميع أعمالهم؛ لأن القوم قد باشروا الوحي وأخذوا الإسلام غضًّا طريًّا عن صاحب الرسالة محمد -عليه الصلاة والسلام-.

ولا يخالطنا أدنى شك فِي أن الصحابة فهموا هذا الدين فهمًا لا مزيد عليه، وانحصر الحق فيما فهموه، ثُمَّ لا يخالطنا أدنى شك بأنَّهم بلغوه لمن بعدهم كما فهموا، وهكذا الذين يلونَهم ثُمَّ الذين يلونَهم بالجملة إِلَى آخر القرون المفضلة

(١) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥) من حديث أوس بن

الذين شهد لَهم بالخيرية الصادق المصدوق محمد -عليه الصلاة والسلام- حيث يقول: **«خير الناس قرني، ثُمَّ الذين يلونَهم، ثُمَّ الذين يلونَهم»**[١] الحديث.

وأخيرًا: طرأ على المفاهيم والتصورات ما طرأ فساءت المفاهيم وتغيرت التصورات، وحدثت تصورات لا وجود لَها عند المسلمين الأولين فِي عهد الوحي وفِي الذين يلونَهم ليصدق قوله -عليه الصلاة والسلام-: **«ما من عام إلا والذي بعده شر منه»**[٢]. والله المستعان.

ولعل المستمع الكريم استطاع أن يسايرني فيما أردت من بيان المفهوم الصحيح والمفهوم الخاطئ فِي باب الشفاعة والتوسل، وأنَّهما بِمعنًى واحد، ولا يعدو معناهما طلب الدعاء من الحي الذي يدعو، وأن الخروج بِهما عن هذا الإطار إلَى دعوة غير الله، وما فِي معناها من أنواع العبادة مفهوم غير سليم ..

هذا ملخص ما أردنا أن نقوله فِي هذه النقطة وإلَى النقطة الثالثة والأخيرة بعون الله تعالى.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) أخرجه البخاري (٣٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٣) من حديث ابن مسعود ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٦٨) من حديث أنس بن مالك ﷺ بلفظ: «... لا يأتِي زمان عليكم إلا الذي بعده شر منه ...».

السنة النبوية

أيها الإخوة؛ هكذا نصل إِلَى النقطة الثالثة من النقاط الثلاث المختارة لحديثنا هذه المرة وهي: "السنة النبوية" ...

ممَّا لا يختلف فيه اثنان أن ديننا الإسلامي مبني على أصلين اثنين:

الأصل الأول: أن يعبد الله وحده دون أن يشرك به غيره، وهو معنى قولنا: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

والأصل الثاني: أن يعبد الله بما شرعه على لسان رسوله وخليله محمد -عليه الصلاة والسلام-، وهو معنى قولنا: أشهد أن محمدًا رسول الله.

وصحة الأصل الأول تتوقف على تحقيق الأصل الثاني، ويمكن أن نوجز معنى تحقيقه فِي صدق متابعة رسول الله -عليه الصلاة والسلام-؛ لأن اتباعه دليل محبة الله ﷻ الذي محبته والأنس به ومراقبته غاية سعي العبد وكده، وهي أيضًا جالبة لمحبة الرب عبده ومغفرته له إذ يقول الرب تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]. ذلك لأنه رسوله المختار ليبلغ عنه دينه الذي شرعه لعباده، وهو المبلغ عنه أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه، فالحلال ما حلله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه، والرسول واسطة بين الله وبين عباده فِي بيان التشريع وما يترتب عليه من وعده ووعيده، وتبليغ حبه الذي اشتمل على ذلك كله، قرآنًا وسنة، وقد كلف بذلك بقوله تعالى: ﴿بَلِّغْ﴾ وبقوله: ﴿لِتُبَيِّنَ﴾ وبقوله: ﴿ادْعُ﴾ إذ يقول الرب ﷻ : ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة:٦٧]. ﴿وَمَا

عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ [النور:٥٤]. ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]. ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:١٢٥] الآية.

إن هذه الآي من الذكر الحكيم تبين بوضوح وظيفة الرسول ﷺ وهي: التبليغ والبيان والدعوة إِلَى الله، إِلَى دينه وشريعته، وهذه الأوامر الربانية الثلاثة تحقق فرضًا واحدًا وهو دلالة الخلق علىٰ الطريق الموصل إِلَى الخالق وهو راض عنهم حَتَّى يكرمهم فِي دار كرامته لقاء ما قاموا به من أداء التكاليف فِي هذه الدار حَتَّى يصدق فِي حقه ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

إنه والله رحمة مهداة ونعمة مسداة، ولكن الشأن كل الشأن هو رفع أتباعه رءوسهم لدراسة سنته كما يجب -مكتفين بِهَا ومتجردين لَهَا- تلك السنة الَّتِي هي ذلكم البلاغ وتلكم الدعوة؟

هذا هو موضوع بحثنا من هذه النقطة؛ ولا يشك مسلم مهما انحطت منزلته العلمية، وضعفت ثقافته وضحلت معرفته، أن الرسول الكريم بلغ ما نزل إليه وهو القرآن، وذلك لأن الإيمان بأن الله نزل القرآن على محمد ﷺ ، وأنه بلغه كما نزل، وأنه بين للناس ما يحتاج إِلَى البيان، وأنه دعا الناس إِلَى سبيل الله ولَمْ يفتر عن الدعوة إِلَى الله حَتَّى التحق بالرفيق الأعلى.

إن هذا المقدار من الإيمان من أصول هذا الدين وأساسه الذي ينبني عليه كل ما بعده، إذا كنا نؤمن هذا الإيمان -ويجب أن نؤمن- فأين نجد بيانه الذي به يتحقق امتثاله ﷺ: "بلغ"، "لتبين"، "ادع"؟.

الجواب: نجد ذلك فِي سنته المطهرة الَّتِي قيض الله لَهَا من شاء من عباده فصانوها وحفظوها من كل قول مختلق، وكل معنىً مزيف؛ ليصدق قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]. والذكر المنزل المحفوظ هو القرآن في الدرجة الأولى، وتدخل السنة في الدرجة الثانية عند التحقيق وإمعان النظر؛ وهذه السنة التي بها البيان المطلوب هي أقواله وأفعاله وتقريراته.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الآحاد والمتواتر

في أثناء الفتوحات الإسلامية الواسعة دخلت على المسلمين اصطلاحات أجنبية بواسطة الكتب اليونانية الَّتي ترجمت إِلَى العربية فِي عدة علوم ومن أخطرها: • علم المنطق والفلسفة، فدخلت تلكم البحوث والاصطلاحات فِي الإلهيات فأفسدت على الناس جوانب خطيرة من عقيدتهم؛ لأنها وجدت تشجيعًا رسميًا ودعمًا قويًا من الخلفاء المعاصرين، وفي مقدمتهم المأمون العباسي الذي تعرفون موقفه من كبار علماء المسلمين والأئمة البارزين كالإمام أحمد بن حنبل.

يقول شيخ الإسلام بن تيمية فِي صدد حديثه عن موقف المأمون: "ما أظن الله غافلاً عما فعل المأمون بعقيدة المسلمين".

ومن تلكم الاصطلاحات الغريبة والدخيلة: تقسيم الأحاديث النبوية إِلَى ظنية، وقطعية.. كخطوة أولى فِي سحب ثقة المسلمين من أحاديث نبيهم، فزعموا أن الآحاد من الأحاديث لا تفيد العلم، ولا يجوز الاستدلال بِهَا فِي باب العقيدة، وإِنَّما يستدل فِي هذا الباب بالأدلة القطعية، وهي الأحاديث المتواترة أو الآيات القرآنية، وقد انطلى -وللأسف الشديد- على علماء الكلام هذا القول المزخرف لضعف بضاعتهم فِي علوم السنة، وانشغالهم بالاصطلاحات الكلامية عن الكتاب والسنة، ثُمَّ جعل المتأخرون من علماء الأصول يتناقلون فيما بينهم هذا الاصطلاح وهذه الدعوى، مِمَّا جعل جمهور الخلف يعتقد هذا الاعتقاد، وظن الناس أن هذا هو معتقد المسلمين سلفًا وخلفًا.

وخشية أن يفطن بعض الحذاق لهذا الخداع المقنع خطو خطوة أخرى كذر للرماد في العيون، فقالوا قولة حق أرادوا بهَا الباطل، وهي قولتهم المشهورة: "إن طريقة السلف أسلم". وأوهموا الناس أن طريقة السلف مجرد سرد النصوص دون فهم لمعانيها حَتَّى أطلق عليها بعضهم: "إنَّها طريقة العوام". وأما الطريقة المثلى الَّتِي فيها التحقيق والتدقيق فهي طريقة الخلف، ولما هدَّءوا الجمهور بعبارتهم تلك مضوا فِي طريقهم فِي إفساد عقيدة المسلمين وإبعادهم عن سنة نبيهم، ولَمْ يقف القوم عند هذا الحد بل خطو خطوة أخرى أخطر من الَّتِي قبلها إذ قالوا: إن باب العقيدة باب خطير، ومبحث هذا الباب أساس فِي الإسلام، فلا ينبغي أن يستدل فيه إلا بدليل قطعي لا يتطرق إليه النسخ ولا يخضع للتخصيص أو التقييد، ألا وهو الدليل العقلي ..

هذه هي الغاية فِي تدرجهم .. وأنت ترى أن مفهوم الدليل القطعي قد تغير.. فبينما كان المراد به فِي الخطوة الأولى الأحاديث المتواترة أو الآيات القرآنية، فإذا يراد به هنا الدليل العقلي فقط، وأما الأدلة اللفظية أوالنقلية قرآنًا وسنة فلا تنهض للاستدلال بهَا استقلالاً فِي هذا الباب، وإنَّما يستأنس بهَا إن وافقت الأدلة العقلية القطعية.

هكذا تدرج القوم فِي أسلوبهم إِلَى أن عزلوا نصوص الكتاب والسنة عن وظيفتها وهي هداية الناس: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩].

والسنة مثل القرآن فِي الهداية: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي»**(١). **«لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري**

---

(١) أخرجه الحاكم (١٧٢/١) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع (٢٩٣٧).

ممَّا أمرت به أو نهيت عنه فيقول: لا أدري!! ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[١] رواه الترمذي. وفي لفظ: «**ألا وإني أوتيت القرآن ومثله معه، ألا وإن ما حرمه الرسول مثل ما حرمه الله**»[٢]. أو كما قال.

وعلى الرغم من هذه النصوص وغيرها من النصوص الَّتي تصرخ بأعلى صوتها بأن الهداية كل الهداية، والخير كل الخير في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وفي سنة رسوله المبينة للقرآن المفصلة ما أجمل فيه، المقيدة لإطلاقه، على الرغم من ذلك كله قد التمس القوم الهدى في غير وحي الله، فأضلهم الله عقوبة لإعراضهم عنه واستخفافهم بشرعه، وفي حديث علي بن أبي طالب عند الترمذي في وصف القرآن: «**من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهُدى في غيره أضله**»[٣][٤].

وإذا ما عزلت النصوص كما رأينا، ولَمْ تعد تصلح للاستدلال بهَا على سبيل الاستقلال، فلم يبق إلا أن يرجع الناس إلَى ما كانوا عليه قبل الوحي وهو التحاكم إلَى العقول، فنتيجة لذلك خاضوا بعقولهم في المطالب الإلهية فتكلموا في صفات الله، فاختلفت العقول وتنازعت -ولابد أن تتنازع- فافترقوا فرقًا مختلفة يضلل بعضهم بعضًا، بل ربَّما كفَّر بعضهم بعضًا، وكلهم على غير هدى

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٥)، والترمذي (٢٦٦٣)، وابن ماجه (١٣) من حديث أبي رافع ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٧٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤) من حديث المقداد بن معديكرب ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٤٣).

(٣) شرح الطحاوية.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٣٣٣١) من حديث عليٍّ ﷺ، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٢٠٨١): ضعيف جدًّا.

طبعًا على تفاوت في ضلالهم:

١- فريق يثبت بعض الصفات وينفي البعض الآخر بدعوى أن ذلك مقتضى العقل، وبعبارة صريحة: إن عقول الأشاعرة والماتريدية تثبت صفات الذات: كالقدرة والإرادة والعلم مثلاً، ثُمَّ ترى وجوب تأويل صفات الأفعال: كالرحمة والمحبة والغضب والاستواء على العرش وغيرها من صفات الأفعال .. هذا مقتضى عقول الأشاعرة وأتباعهم.

٢- أما المعتزلة فقد انقسموا على أنفسهم فافترقوا عدة فرق، فأقربُهم من يثبت الأسماء مع نفي الصفات مع ملاحظة أن أسماء الله عندهم كالأسماء الجامدة الَّتي لا تدل على المعاني، ومن غلاتهم من ينفي الصفات والأسماء معًا ولا يثبتون إلا ذاتًا مجردة من الأسماء والصفات، حَتَّى أصبح وجود الله عندهم وجودًا ذهنيًا فقط، ولا يتصور وجوده في الخارج.

هذا ما نتج من ذلك التصرف والتلاعب بالنصوص، بل عزلها عن وظائفها كما قلنا سابقًا، وفي النهاية استولت عليهم الحيرة واستوحشوا مع أنفسهم بعد أن فقدوا الأنس بالله، وبهما تستر القوم بما أبدوا من تعظيم مبحث العقيدة بتلكم العبارات المعسولة الَّتي سبق ذكرها، والَّتي لا تنطلي إلا على من يجهل القوم على صورتهم الحقيقية، فقد انجلى لكل دارس فاهم ما انتهى إليه أمرهم، فاسمعوا معي ما قال بعض فطاحلتهم متندمين في آخر جولاتهم في علم الكلام والفلسفة، ولعل الله ختم لَهم بالتوبة النصوح وحسن الخاتمة ..

يقول الرازي متندمًا وواصفًا لحياة علماء الكلام:

نهاية إقدام العقول عقال	وغاية سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولَمْ نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

إلى أن قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمفاهيم الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]. واقرأ في النفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]. ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠]. ثُمَّ قال: "ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

ويقول الشهرستاني هو الآخر: إنه لَمْ يجن منه الفلاسفة والمتكلمون إلا الحيرة والندم حيث يقول:

لعمري لقد طفت المعاهد كلها — وسيرت طرفي بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعًا كف حائــر — على ذقنه أو قارعًا سن نادم

وثالثهم أبو المعالي الجويني يقول: يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به.

وقال عند موته: لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي نهوني عنه، والآن إن لَمْ يتداركني ربِّي برحمته فالويل لابن الجويني، وهأنذا أموت على عقيدة أمي. أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور -يعني الفطرة-.

ويحكى عن بعض تلامذة فخر الدين الرازي واسمه شمس الدين الخسروشاهي، يحكى عنه أنه قال لبعض الفضلاء وقد دخل عليه يومًا: ما تعتقد؟.

قال: ما يعتقده المسلمون.

فقال الخسروشاهي: وأنت منشرح الصدر لذلك ومستيقن به؟.

فقال: نعم.

قال: اشكر الله على هذه النعمة، ولكنِّي والله ما أدري ما أعتقد، والله ما

أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد -ثلاث مرات- وبكى حَتَّى اخضلت لحيته.

ثُمَّ لنسمع الأبيات الآتية: لابن أبي الحديد الفاضل المعروف بالعراقي، وهو يذم علم الفلسفة ويرى أن تسميتهم إياها بالنظر غير صحيحة، فلنسمع نص كلامه:

فيك يا أغلوطة الفكـــر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحـت إلا أذى السفـر
فلا حيا الله الألى زعموا أنـك المعـروف بالنظـر
كذبوا إن الذي ذكروا خارج عـن قـوة البشـر

ونختم هذه النقول بحكايتين قصيرتين ولكنهما خطيرتان:

إحداهما: يروى عن بعضهم -وهو الخونجي- أنه قال عند موته: "ما عرفت مِمَّا حصلت شيئًا سوى أن الممكن يفتقر إِلَى المرجع" ثُمَّ قال: "الافتقار وصف سلبِي أموت وما عرفت شيئًا" هكذا نتركها دون تعليق لننقل لكم الحكاية الثانية والأخيرة، وقد تحاشى الرواة ذكر اسم هذا الأخير لأمر ما وهو يقول: "أضطجع على فراشي واضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حَتَّى يطلع الفجر ولَمْ يترجح عندي منها شيء".

ويقول شارح الطحاوية وهو يعلق على أصحاب هذه النقول بصفة عامة والأخيرتين بصفة خاصة: يقول: "ومن وصل إِلَى مثل هذه الحال إن لَمْ يتداركه الله برحمته وإلا تزندق، كما قال أبو يوسف: من طلب الدين بالكلام تزندق".

ومسك الختام لهذه النقول: كلام لإمام من أئمة الهدى، الإمام الشافعي عرف القوم وعرف فيهم ما لا يظن وجوده عندهم، فلنسمع ماذا يقول الإمام: "لقد

اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلمًا يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نَهى الله عنه ما خلا الشرك بالله، خير له من أن يبتلى بالكلام"(١).

وبعد: لعلي لست بحاجة إِلَى التعليق على هذه النقول المختلفة، بعد أن أعلن علماء الكلام أنفسهم ممثلين فِي أئمتهم الذين يحتجون بكلامهم بأَنَّهم ليسوا على شيء، وأَنَّهم قضوا أعمارهم فيما لا طائل تحته، بل فِي كلام بعيد عن علوم المسلمين، ثُمَّ توج إعلانَهم ذلك كلام الإمام الشافعي الذي سمعناه، ولكن الذي يهمنا فِي هذا المقام: أن ندرك أن تلك المحاولة الجهمية الَّتِي قام بِهَا علماء الكلام، والَّتِي سبق أن تحدثنا عنها والَّتِي قدمت للمسلمين السذج بأسلوب خداع أظهر تعظيم شأن العقيدة، أن تلك المحاولة هي الَّتِي نجحت وللأسف وأنتجت هذا الموقف الخطير على عقيدة المسلمين.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

(١) شرح الطحاوية: ص (٢٢٧-٢٢٩).

ما هو الموقف السليم

إذا أثبتنا أن ما ذهب إليه علماء الكلام وتبعهم فيه قوم آخرون أنه غير سليم لابد أن يطرح هنا هذا السؤال: ما هو الموقف السليم إذن؟!

الجواب: بديهي أن الموقف السليم هو الذي كان عليه الرعيل الأول قبل أن يوجد علم الكلام بفروعه المتعددة.

وتوضيح ذلك: أن السنة مثل القرآن في الاستدلال بهَا، فيستدل بالسنة في كل مقام يستدل فيه بالقرآن، ولا يشترط لذلك إلا صحة الثبوت عن رسول الله -عليه الصلاة والسلام-، ولا فرق بين متواترها وآحادها من حيث الاستدلال بالجملة، وكل ما في الأمر أنه يقدم المتواتر على الآحاد في حالة التعارض كما يقدم الصحيح على الحسن عند التعارض، وهذا معروف لدى طلاب العلم.

أما القول: بأنه لا يستدل بالآحاد في باب العقيدة، أو لا يستدل بالأدلة النقلية على وجه الاستقلال في هذا الباب، فقول مبتدع في الإسلام.

ولنبرهن على صحة ما قررنا، نذكر ما كان عليه الرسول -عليه الصلاة والسلام- وخلفاؤه من عدم اعتبار هذه الاعتبارات المحدثة الَّتي أحدثها من أحدثها ليلبسوا بهَا على المسلمين السذج الذين لا يفرقون بين الشحم والورم وبين التمرة والجمرة.

١- بعث رسول الله معاذ بن جبل إِلَى اليمن ليدعوهم إِلَى الله ويبلغهم عن رسول الله؛ وكان باليمن جماعة من أهل الكتاب -اليهود- فأرشده النَّبي -عليه الصلاة والسلام- كيف يعاملهم، وأمره أن يكون أول ما يدعوهم إليه شهادة أن

لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوه فِي ذلك يخبرهم بأن الله افترض عليهم خمس صلوات فِي اليوم والليلة ... الحديث(١).

وممَّا يلاحظ أن معاذًا كلف ليدعوهم إِلَى أصول الدين وفروعه معًا، وهذا يعني أن الإسلام لا يفرق بين باب العقيدة والأحكام، فكما يجوز أن يبلغ فرد واحد الأحكام الشرعية، كذلك يجوز أن يبلغ فرد واحد العقيدة الإسلامية، فحيث تقبل أخبار الجماعة يقبل خبر الواحد العدل، هذا ما درج عليه سلف هذه الأمة؛ فرسل رسول الله -عليه الصلاة والسلام- إِلَى اليمن كأبِي موسى الأشعري، وعلي بن أبِي طالب، ورسله إِلَى غير اليمن، وجميع دعاة الإسلام من بزوغ فجر الإسلام إِلَى يومنا هذا كانوا يدعون إِلَى الله أفرادًا وجماعات، ويبلغ بعضهم عن بعض ولا يعلم لهذا الاصطلاح ذكر فِي الأوساط الإسلامية فيما نعلم، وإذا كان كذلك فلا يكون اليوم دينًا ما لَمْ يكن دينًا فِي عهد الوحي، وما لَمْ يعرفه أولئك السادة من الصحابة والتابعين الذين نقلوا الدين إِلَى من بعدهم ممثلاً فِي القرآن والسنة المطهرة. ليتضح أن هذا التصرف باطل من القول، وما ترتب عليه من الأحكام الَّتِي منها التفريق بين الصفات الثابتة بالآحاد والثابتة بالمتواتر أو القرآن؛ والقول أن المعول عليه هو الدليل العقلي، وأما النقلي فتابع له إن وافق قبل، وإلا ردّ.

كل ذلك تصرف محدث فِي الدين، وقول فِي شريعة الله بلا هدى ولا دليل منير؛ وكل ما كان كذلك يجب رده صونًا للشريعة وحفظًا للعقيدة.

وبعد: فليس بعجب أن يصاب هؤلاء العلماء الذين تحدثنا عنهم بذلك المرض -مرض علم الكلام- فِي تلك العصور الخالية ثُمَّ يتوب الله عليهم فيتوبوا؛

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما-.

لأن المرض الغريب المعدي الطارئ قد ينتشر بين الناس قبل أن تعرف أعراضه لجهل الناس بحقيقته حتَّى يقابل بالوقاية أولاً، ثُمَّ بالعلاج إذا نزل، ولكن العجيب المثير أن يعرف المرض ويصاب به من شاء الله من عباده، ثُمَّ ينزل الله الشفاء على من شاء منهم فيزول البأس، فيصف أولئك المرضى بعد أن عافاهم الله خطورة ذلك المرض، وسوء حالهم، ووحشتهم عندما كانوا مصابين به، ثُمَّ ينشطون فِي تحذير الناس من التعرض لأسبابه وينصحون بالابتعاد عنه واستعمال الوقاية ضده، وبعد هذا كله يتعرض بعض الناس لهذا المرض فيصاب به عدد كبير من شباب المسلمين، ويعيش هؤلاء المرضى بين الأصحاء مختلطين بِهم وهم لا يشعرون أنَّهم مرضى، ومن عرف منهم أنه مريض يتجاهل مرضه ويخفيه.

هذا هو حال علم الكلام وعلماء الكلام، ومثلهم أصيب الفخر الرازي والإمام الجويني والشهرستاني والغزالي وغيرهم من كبار علماء المسلمين بداء علم الكلام، وفِي نِهاية المطاف أدركوا أنَّهم قضوا أعمارهم فيما لا طائل تحته، وأن علم الكلام حال بينهم وبين النظر فِي كتاب الله وسنة نبيه والانتفاع بِهما، ثُمَّ تاب الله عليهم فتابوا وألفوا كتبًا تدل على توبتهم، أو نشروا مقالات أو أبياتًا تدل على أنَّهم تابوا، ومِمَّا كتبه الرازي فِي توبته كتابه المعروف: "**أقسام اللذات**" كما كتب الإمام الجويني بعد توبته رسالته المشهورة: "**الرسالة النظامية**"، وقد كتب الشهرستاني وهو ثالثهم كتابًا أبدى فيه ندمه البالغ: "**نِهاية إقدام العقول**".

وأما الإمام الغزالي فقد كتب كتابًا ينصح فيه العوام وأشباههم عن الخوض فِي علم الكلام، وسماه: "**إلجام العوام عن علم الكلام**".

وبعد هذه التوبة المعلنة من هؤلاء الأئمة المجربين ونصحهم للناس ألا يقربوا علم الكلام، بعد هذا كله أتى أناس أدخلوا هذا العلم فِي معاهد وجامعات

إسلامية بعد تغيير العنوان أو الاسم فقط؛ مع بقاء الحقائق كما كانت فسموه "**مادة التوحيد**" أو "**مادة العقيدة**" لا توحيد ولا عقيدة اللهم إلا ما كان من توحيد الربوبية الذي لَمْ يجهله أحد من بني آدم عبر التاريخ الطويل، اللهم إلا ما كان من الشيوعيين الجدد في الآونة الأخيرة من إنكارهم لوجود الله متجاهلين ومعاندين، ذلك التجاهل الذي قد تمليه أحيانًا أوضاع سياسية واقتصادية؛ حيث أنكرت وجود الله بعض الجهات فترة من الزمن ليكون ذلك الإنكار ثَمنًا لأسلحة سوفيتية متطورة.

وإذا ولت السياسة وجهها شطر الغرب، اختفى الإلحاد وارتفع الإنكار ولو مؤقتًا كنتيجة لضعف الإيْمان واليقين، والله المستعان.

أما توحيد العبادة فلا ذكر له إلا ما كان بالاستطراد، وأما توحيد الأسماء والصفات فقد صار مفهوم التوحيد في هذا القسم نفي الصفات كلها أو بعضها.

ولا أستثني من هذه المعاهد والجامعات إلا المعاهد والجامعات السعودية، الّتي يرجع الفضل في سلامتها من هذا الوباء -بعد الله- لدعوة محمد بن عبد الوهاب جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير ما جازى به المصلحين.

وقد وقفت هذه الدعوة المباركة سدًّا منيعًا أمام تيار الإلحاد والفساد، وما انحرف من الاعتقاد، ولا تزال كذلك، وقد صان الله بِهَا عقيدة شباب هذا البلد الطيب ومن هاجر إليه أو طلب العلم في معاهده وجامعاته من الانزلاق في تلك المزالق، كما هو معروف لدى الحضور، ومِمَّا يبشر بالخير أن بعض المعاهد والجامعات في بعض الدول الإسلامية أخذت تنتهج منهجًا سلفيًّا في دراسة العقيدة على قلتها وجلها من الجامعات الأهلية، ويحق لنا أن نقول: "أول الغيث القطر ثُمَّ ينهمر" ولله الحمد والمنة.

فنسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يحفظ علينا ديننا وعقيدتنا، ويختم لنا بحسن الخاتمة من هذه الحياة إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلاة الله وسلامه على نبيه ومصطفاه محمد وآله وصحبه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

فهرس الموضوعات

※ القسم الأول ٧
- تصحيح المفاهيم في جوانب من العبادة والصفات ٧
- العبادة ٩
- التوسل ١٥
- الوسيلة في القرآن الكريم ٢٣
- إطلاقات التوسل ٢٤
- مبحث الصفات ٢٨
- القرآن الكريم ٣٩

※ القسم الثاني ٤٩
- مقدمة ٤٩
- أولاً: الأولياء ٥٢
- أقسام الأولياء ٥٥
- الأمور الخارقة للعادة على أيدي أولياء الشيطان ٥٦
- ثانيًا: الكرامات ٦٠
- موقف المعتزلة من كرامات الأولياء ٦١
- موقف أهل السنة من كرامات الأولياء ٦٢
- الموقف السليم من الأولياء ٦٧
- الحقوق الثلاثة ٦٩
- الشفاعة ٧١
- المفهوم الصحيح للشفاعة ٧٣
- السنة النبوية ٧٧
- الآحاد والمتواتر ٨٠
- ما هو الموقف السليم ٨٧

※ الفهرس ٩٢

المركز الدولي I.P.C
012/7930415

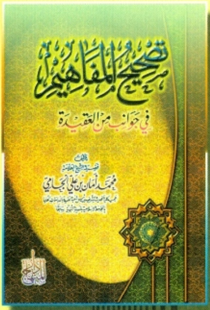
تصحيح المفاهيم
في جوانب من العقيدة
تأليف
فضيلة الشيخ العلامة
محمد أمان بن علي الجامي